فضيلة الفاروق

تاء الخجل

رواية

تاء الخجل

تاء الخجل

فضيلة الفاروق

تاء الخجل

رواية

المحتويات

«Toute horreur se pouvait définir
Tout chagrin connaissait une quelconque fin
Dans la vie, pas de temps à consacrer
aux longs chagrins»

T. S. Eliot

«كل هول بالإمكان تحديده
كل حزن يعرف بشكل ما نهاية
في الحياة، لا وقت لتكريس الأحزان الطويلة»

ت. س. إليوت

١

أنا وأنتَ...

منذ العائلة... منذ المدرسة... منذ التقاليد... منذ الإرهاب كل شيء عني كان تاءً للخجل،
كل شيء عنهن تاءٌ للخجل،
منذ أسمائنا التي تتعثَّر عند آخر حرف،
منذ العبوس الذي يستقبلنا عند الولادة،
منذ أقدم من هذا،
منذ والدتي التي ظلت معلَّقة بزواج ليس زواجاً تماماً،
منذ كل ما كنتُ أراه فيها يموت بصمت،
منذ جدَّتي التي ظلت مشلولة نصف قرن من الزمن،
إثر الضرب المبرح الذي تعرضت له من أخي زوجها وصفقت له القبيلة، وأغمض القانون عنه عينيه.
منذ القدم،

منذ الجواري والحريم،
منذ الحروب التي تقوم من أجل مزيد من الغنائم،
منهنَّ... إليَّ أنا، لا شيء تغيَّر سوى تنوع في وسائل القمع وانتهاك كرامة النساء.
لهذا كثيراً ما هربت من أنوثتي،
وكثيراً ما هربت منك لأنك مرادف لتلك الأنوثة.

وأنا على شرفة الرابعة عشرة، حين دغدغتَ مشاعري بنقائك،
عشتُ الحيرة لأول مرة، أَبصَفٍّ النساء أنا أم بِصَفٍّ الرجال؟
لماذا اختلفتَ عن كل الرجال؟
ألأنك ابن امرأة على رأي أهل الحي؟
أم لأنك اختلفتَ من أجلي؟

عشتُ أجمل قصة حب في ذلك الزمن الباكر،
ومعك في الغالب كنتُ أنسى قساوة الرجال،
لكنه بستان الأشواك الذي يحيط بك!

أَتَذْكُرُ ذلك الطوفان الذي كان يغمرنا معاً أنا وأنت؟ أَتَذْكُرُ صخب عيوننا؟
أتذكر أجمل السنوات التي أمضيناها معاً؟

وكيف غادرْنا بستان الأشواك بعد البكالوريا؟ سافرتَ إلى العاصمة، وأنا سافرتُ إلى قسنطينة. لم أكن أعلم يومها أنني سلمتُ نفسي لقدر تختلف دروبه عن دروبك.
وجدت قسنطينة قصيدة من أجمل القصائد،
كانت مدينة على مقاسات القلب.

وكنتَ تكتب لي عن العاصمة، عن جنونها وفوضاها عن الأصدقاء، وأجواء الحي الجامعي في «بن عكنون» ثم تحدثني عن البحر، كنتَ تقول لي إنَّ العاصمة طعمها مالح ورائحتها تشبه رائحة صندوق خشبي مبلل، وكنتَ تكره الخمَّارات، حينها تتذكر آريس وبساتينها وهواءها الجبلي النقي، فأحدثك عن قسنطينة، وأشجار الصنوبر والمسرح، ودار الإذاعة والتلفزيون وحفلات الصيف، وسهرات رمضان، وبكاء الشتاء، ورقصة الضباب على الجسور، وغبطة الشوارع بالمالوف(*).

كنتُ قد تورطت في عشقها ولم أكن أدري أنها «مدينة لا تحضن ولا تُخلي السبيل»(**).

إنها مدينة تشبه الحكايات، تشبه النساء المفخخات بالألم، تشبه الجواري، والحريم، وتشبه الكمنجة التي لا تكف عن الأنين.

كانت كمنجة، وأمام كمنجة حالمة لا يمكننا سوى أن نحلم، سوى أن نكتب، ولهذا كتبتُ لك الكثير من الرسائل، كنتُ غزيرة الكتابة، ربما لأنني أيضاً كما قال «غي دي كار» امرأة و«المرأة تعشق السرد لأنها تقاوم به صمت الوحدة». كان صخب الكتابة يكسر قضبان الداخل ويجعلني أمشي في مظاهرة ضخمة تنادي بالحياة.

في قسنطينة كل شيء جميل إلاّ الحب فهو مؤلم.

(*) المالوف: اللون الغنائي الذي تتميز به مدينة قسنطينة.

(**) مراد بو كرزازة. كاتب جزائري.

كان قد أقبل الصيف حين افترقنا.
في الصيف دائماً يلتقي الناس ويفترقون.

كنتَ تستعد للسفر إلى «حاسي مسعود»[*] من أجل العمل، كنتَ ترغب في شراء هدية فاخرة لي، تليق بيوم مولدي، وقد فاجأتك بما لم تتوقعه: أهديتك انفصالاً!

في الجامعة تحولت حياتنا إلى ساحة يعبرها الأصدقاء، كنت طيب القلب إلى درجة لا تحتمل فسئمتُ من ذلك الوضع، إلى اليوم أنا امرأة أمارس حياتي وكأنها عمل سري وأغطيها بغطاء سميك، نادراً ما يتمكن الضوء من اختراقه.
لم أكن أدري أنني منحتُ نفسي خيبة محكمة الإغلاق.

بعدك حادت الدنيا قليلاً عن مسارها،
صارت أكثر حِدَّة.

بعدك صار الرجال أكثر قسوة أيضاً،
صارت الأنوثة مدججة بالفجائع.

بعدك، بعد الثلاثين، أصبحت الطرق المؤدية إلى الحياة موحلة.
أصبحت الأيام موجعة.

لعلّك تتساءل ما الذي أعادني إليك اليوم؟
وسأجيبك: إنه ربما الإيمان، إذْ أخجل من أن أفتح حديثاً عن الحب،

(*) مدينة في الصحراء الجزائرية غنية بآبار البترول والغاز الطبيعي.

والوطن يشيّع أبناءه كل يوم. الحب مؤلم جداً حين تعبره الجنائز، وتلوثه الاغتصابات ويملأه دخان الإناث المحترقات.

قد تفهمني بعد أن أسرد لك وجعي كله،
وقد لن تفهمني، لكني أكون قد وجدت مبرراً لنفسي لأني غادرت.
فكل شيء صار أزرق وكبيراً، وتستحيل السباحة فيه، بما في ذلك وظيفتي، وعلاقتي مع الناس، وعلاقتي مع الكتابة.

كنتُ مشروع أنثى، ولم أصبح أنثى تماماً بسبب الظروف. كنتُ مشروع كاتبة، ولم أصبح كذلك إلاّ حين خسرتُ الإنسانة إلى الأبد. كنتُ مشروع حياة، ولم أحقق من ذلك المشروع سوى عُشره.

وأنا طفلة سمعت العمّة كلثوم تهمس للعمّة تونس أني «خفيفة» ولهذا سأجد متاعب مع رجال العائلة، لكن العمّة تونس لم تهتم، سارعت إلى طنجرة الكسكسي، وقلبت «الكسكاس»(*) الذي يتصاعد منه البخار على قصعة خشب، وراحت تفرك الكسكسي الساخن بيديها. ظننت أنها نسيت الموضوع، لكنها قالت بتأنٍ:
ـ إنها طفلة

العمّة كلثوم أصرت:
ـ إنها تختلف عن بناتنا.

والحقيقة أنني لم أكن مختلفة في شيء عن بنات العائلة، كانت والدتي هي المختلفة.

(*) الوعاء الذي يطبخ فيه الكسكسي بالبخار ويوضع فوق الطنجرة.

سأحدثك عن والدتي إذن، طويلة وجميلة ولم تنجب غيري، وغير ذلك لم تكن تنتمي لبني مقران، إذْ جاءت من خارج أسوارهم، وقد تعرّف إليها والدي في مدرسة الراهبات، أحبّها وأحبّته فطلق ابنة عمه «جوهرة» وتزوجها.

كل نساء العائلة فيما بعد صرن ينتقمن من أمي بمكائدهن، كُنَّ يعاقبنها بشكل ما لأنها أساءت لإحداهن.

إلاّ العمّة تونس، كانت تحبها، ولا تتجرأ نساء العائلة أمامها على أن يقلن شيئاً عن أمي.

لكنني كنت أسمعهن، كثيراً ما اختبأت في الزوايا المظلمة وتسللت إلى غرف نومهن التي يُمنع على الأطفال منعاً باتاً اقتحامها. أَختبئ تحت الأسرّة وأصغي إليهنّ.

لن تفهم هذه الأشياء إذا لم أصف لك بيت طفولتي وكيف كنا نعيش فيه، فهندسته ونظام الحياة فيه سرّ من أسرار تركيبتي وتمرّدي.

إنه بيت من طابقين، وست عشرة غرفة، وساحة كبيرة يحيط بها سور عالٍ تُسمى «الحَوْش».
كنتُ أشبه البيت بشكل عجيب،
إذْ لا أزال منغلقة انغلاقه على الداخل،
وأحيط نفسي بسور عالٍ وبكثير من الأشجار. غُرفتي أيضاً مثل غرف البيت، كثيرة الأسرار، كثيرة الخبايا، كثيرة المواجع، وفي كل غرفة أنثى لا تشبه الأخريات...
فيَّ شيء من العمّة تونس،

شيء من لَلاَّ عيشة،
أشياء كثيرة من زهية والدتي،
وأشياء من الأخريات.

سيدي إبراهيم هو الرجل السلطة في ذلك البيت، إمام مسجد، رجل دين، وزوج العمَّة تونس. لم ينجبا أطفالاً، وتقول نساء العائلة إن العلّة فيها هي، لكنه لم يتزوج عليها، وقد كنتُ مقتنعة إلى أبعد حدّ أنهما لم ينجبا أطفالاً لأنهما يعيشان مع بعضهما حياة الرهبان. كان يُخيل إليّ أنه ولد هكذا بشيخوخته وهيبته، إذْ يصعب تصور رجل بكل تلك السلطة أنه كان طفلاً ذات يوم، أو أنه رجل يمارس الجنس. كنتُ أحبه جداً، وأحبُّ ذلك الماضي، رغم ألوانه الداكنة.

أمّا البيت، أمّا أشجار الرمان والجوز، أمّا «العريشة» أمّا طيور البلاَّرج(*) والسنونو، والحمام... تلك كانت ذؤابة القلب.

وذاك مسرح الطفولة والصِّبا،
والسور الخلفي، وشباك القضبان المطل على الضفة الأخرى من آريس... عبر تلك القضبان،

هناك، عند كعب القلب بيتك...
أغمض عيني فيبحر البيت إلى داخلي كزورق يدفعه قدر. يتوقف البيت عند منبع النبض وينفتح الباب بسرعة ليخرج ذلك الصبي الأسمر محملاً بمحفظته ويقول: لقد تأخَّرتِ اليوم.

(*) طيور اللّقلق.

أُجيبه: يجب أن نركض حتى لا نتأخَّر أكثر.
وننطلق ركضاً فيما ورق السنوات يتطاير ليتوقف عند الثلاثين.

كم تأخر الوقت لأفكر فيك اليوم، وأسترجع خطوط قصة صنعتها وأنهيتها بيدي.

كان يجب أن نتواجه حين قررت أن أهجرك فجأة، كان يجب أن تسألني، أن تلاحقني، أن تطلب مني توضيحاً، أن تعتذر عن ذنب لم تشعر أنك ارتكبته، لكنك رجل من برج الثور معطاء في الحب، شحيح في الاعتذار.

يحطُّ الحنين دفعة واحدة على غرفتي فأجد نفسي مسيّجة بالماضي كله؛ كنّا في الجامعة، وكان رذاذ شباط (فيفري) يُلبس قسنطينة فستان زفاف.

تجاورنا على كرسي من حجر، التحمت كتفانا لطرد البرد، وتشابكت أصابعنا لتكرر مرة أخرى تلك الحكاية.

ما زلت أذكر كم كنت أحب يديك، واستدارة أظافرك، والحقول المزهرة في راحتيك.

أخرجت مفكرة من جيبك، ودونت ذلك التاريخ.
- إنه الرابع عشر من شباط (فيفري).

مددت يدي وأخذت منك المفكرة، كانت جميلة جداً، سألتك:
- من أين لك هذه المفكرة، إنها رائعة؟

كان اسمها «مفكرة الجمال»، شيء مبتكر وجديد، فيها أزهار وطرق تقليدية للتجميل ومقسمة إلى أبراج وأشهر، وأيام، وأعياد، ورموز.

قلبت الصفحات بسرعة، وتوقفت عند الرابع عشر من شباط (فيفري).

ثم قرأت بعينين ملأتهما الطفولة:
- عيد العشاق.

التقت عيوننا فرحاً، كانت تلك أول مرة نسمع فيها بذلك العيد. وقفتُ يومها واحتضنت المطر.

أمّا أنت، فقد بقيت تتأملني، وبؤبؤا عينيك يصلّيان، ورموشك تغرق في سجود طويل، اقتربت منك وقلت لك هامسة:
- ما بك؟

ولكنك واصلت صلاتك وأنت تمسك بوجهي ثم أجبت:
- إنك هنا... وهذا كل ما أريده في الحياة.

لماذا خانني المطر بعد ذلك؟
ألأنني من بني مقران، من ذلك البيت المليء بالخيبات المغلقة والبريق الزائف؟ أم لأنني أنثى تملأها العقد؟

أذكر أني عدت ذات يوم من المدرسة، فلم أجد أمي بالبيت، نزلتُ عند العمّة تونس أسألها عنها، فإذا بالعمّة كلثوم تنادي عليّ من

فوق، إذْ كنا نقتسم معها الطابق العلوي:

- أمك غادرت، ولن تعود! (ثم ابتسمت ابتسامة ماكرة).

نهرتها العمّة تونس، وقد شممت في غضبها ما لا يَسُرُّ. نمتُ ليلتها عندها، بجوار «للاً عيشة»، وطوال الليل كانت رائحة شعرها المخضب بالحناء تملأ أنفي.

في الصباح التالي كانت أمي قد عادت، وخالي «السَّبتي» يرافقها. شرب القهوة مع سيدي إبراهيم في غرفة الضيوف ثم غادر. أمّا أمي فقد ظلت صامتة، وقد شعرت ببكائها يغمرها حتى الذقن، ولكنها صمدت من أجلي.

منذ ذلك اليوم لم نعد نرى والدي إلاّ مرة أو مرتين في الأسبوع، وفيما بعد عرفت أنه تزوّج امرأة بإمكانها أن تنجب له أطفالاً ذكوراً، ما دامت أمي غير قادرة على فعل ذلك.

سمعت ذلك من العمّة كلثوم، التي كانت أشد نساء العائلة كرهاً لوالدتي، وكانت تناديني «بَلاَّ رَجْ» لأنني نحيفة وساقاي طويلتان مثل أمي.

قالت للعمّة نونة في حديث بينهما:

- لولا «السبتي» لطلقها عبد الحفيظ وارتحنا منها.

وقد أخبرتُ أمي بما سمعت، ولأنَّ قلبها كان طافحاً أطلت عليهما وصرخت قائلة:

- سأقص لسانيكما أنتما الاثنتين، لا عبد الحفيظ سيطلقني، ولا أنا سأغادر هذا البيت.

في تلك الليلة ضرب عمي بوبكر العمة نونة ضرباً مبرحاً وقد غضب سيدي إبراهيم جداً، لكن أمي ابتسمت.

وفي اليوم التالي، أمسكني سيدي إبراهيم من أذني وآلمني كثيراً، ثم أدخلني إلى غرفة الضيوف وأغلق الباب وراءه، فإذا بالغرفة تضيق وتتحوّل إلى مقصلة. اقترب مني، كاد أنفه الرفيع أن يلتصق بأنفي، ابتعدت عنه قليلاً وأنا أرتجف، فرفع سبابته نحو عيني وقال:

- لا أريد أن يتكرر ما حدث البارحة بسببك، لا أريدك أن تكوني مثل نساء العائلة، أريدك أن تكوني مثل تونس، يهمك هذا (وأشار إلى أنفه)(*).

منذ ذلك اليوم أقلعت عن إخبار أمي بما أسمع، ولكني لم أتوقف قط عن ممارسة هواية التنصت على الجميع.

* * *

كنتُ في الغالب أحب أن ألعب مع خليل ويونس، كانا من سني تقريباً، لكنهما صارا يتهربان مني عندما كبرا قليلاً، وكان عمي بوبكر يكره أن يراني معهما، ويرى في غياب والدي عن البيت سبباً في (فسادي)، فكثيراً ما سمعته يتحدث عني وكأني سبب في كل مشاكل العالم، ولكن سيدي إبراهيم كان يحبني جداً إذْ كانت لي قدرة عجيبة على إضحاكه، وغير ذلك كنت ذكية وناجحة في المدرسة مثل ذكور العائلة. أمّا العمة «كلثوم» والعمّة «نونة» فلهما تفسير آخر لهذا النجاح، فقد كانتا تقولان إن سيدي إبراهيم كتب «حجاباً» لينجح الذكور، وكتب آخر ليجعل من

(*) الأنف رمز للكرامة في المجتمع الجزائري.

الإناث ربات بيوت، أمّا أنا فيسكنني عفريت، لهذا اختلفت عن الأخريات، بل وتجرأتا أن تقولا إن زهية (والدتي) تريد أن تجعل مني صبياً أعوج، فأسكتتها «لَلاّ عيشة» بنظرة واحدة.

«لَلاّ عيشة» كان لها سلطة من نوع آخر، فبالإضافة إلى راتبها الشهري الذي كانت تتقاضاه لأنها زوجة شهيد، كانت قد ورثت عن زوجها نخيلاً في «مشونش»(*)، وأراضي في ضواحي «آريس»(**) تدر عليها كل سنة مبالغ محترمة من المال، هذا ما يجعل عائلة بني مقران كلها تحترمها وتأخذ رأيها في كثير من الأمور.

وأذكر حين خُطبت خيرة ابنة عمي الحسين، أنها قالت عن الخطيب إنه لم يعجبها، فرفضه الجميع.

أمّا بالنسبة إليّ فـ«لَلاّ عيشة» كانت امرأة قوية، إذْ كانت تجالس الرجال، وتشاركهم أحاديثهم السياسية، وقد أخبرتني ذات يوم أنها كانت أول امرأة تنخرط في الحزب أيام الثورة، وأنها دفعت «أربعة دورو»(***) كقيمة للاشتراك وقتها.

كثيراً ما تمنيت أن أكون صبياً أو مثل «لَلاّ عيشة». يومها لم أكن أعرف تلك الحكمة اليابانية التي تقول «احذر مما تتمنّى»، فقد وجدتني أمامك وأنا في تلك السن الباكرة أواجه حبك الجارف بتناقضاتي ومشاعري المتقلبة.

(*) مدينة في الجنوب الجزائري.

(**) مدينة في جبال الأوراس.

(***) ما قيمته عشرون سنتيماً بالعملة الجزائرية اليوم.

ولم أتغير إلى يومنا هذا، ما زلت أحبك على طريقة البحر. كنتُ أسألك دائماً:

- ماذا ستفعل لو حدث وانفصلنا؟
- لن ننفصل.
- أقول لو ...
- أنت مجنونة.
- لماذا لا ندرس كل الاحتمالات؟
- ولماذا يجب أن ندرسها؟
- لأنَّ ذلك يخيفني.
- إذن لا تفكري في ما يخيفك.
- لكن ماذا لو حدث، هل ستحب غيري؟

تراجع الضعف في عينيك، وارتدت لهجتك شيئاً من التهديد:

- لن أحب سواك، وحتى حين أموت سأطلب من الله أن يجعلك معي بدل حور العين.

انفجرت ضاحكة وقد تسلقني الغرور:

- يا أهبل، أتفضلني على حور العين؟ إنني بشعة، وأشبه «بلاً رج» على رأي العمّة كلثوم.
- أنت لا تشبهين النساء، ليعرف الناس إن كنت جميلة أو لا.
- حقاً؟

قلت شعراً يومها:

- أنت كائن أعجز عن وصفه، إنك تسكنين كل الأغنيات التي أحب، تتلونين بألوان الطبيعة، أجدك في الورد، في أجنحة

الفراشات، في شفق خجول في خيوط الفجر، وفي كل الأشياء التي تجتاز الكيان.

أعجبني ما قلت:

- لماذا لا تكتب هذه الأشياء، إنك مشروع شاعر.
- لا، إنها تخصكِ أنت فقط.

كنتُ أعود إلى البيت محملة بكلامك، فأنهي دروسي بسرعة، وأتذرع بالنعاس لأحلم به مرة أخرى وعيناي مغمضتان.

لكن بكاء أمي الصامت، وخلافات صبايا العائلة، تجعلني متوترة أحياناً، أمّا ما يجعلني فعلاً أفقد أعصابي فهو فترة الغداء يوم الجمعة، إذْ علينا نحن النساء أن ننتظر عودة الرجال من المسجد، وبعد أن ينتهوا من تناول الغداء يأتي دورنا نحن النساء؛ كنا جميعاً نجتمع عند العمّة تونس، وكنتُ أكره ذلك التقليد الذي يجعل منّا قطيعاً من الدرجة الثانية.

كان يزعجني أن أرى سيدي إبراهيم في موقع السلطان وأعمامي وأبناءهم حاشيته المفضلة، يجلسون في غرفة الضيوف حول المائدة الكبيرة، ينتظرون خدمتنا لهم. كانت النسوة يبقين في المطبخ، يسكبن الصحون، ونحن الصبايا نقوم بتوصيلها، ولهذا كل يوم جمعة أصاب بالصداع، أتمارض، وأختار لنفسي موقعاً في البستان أو على سلالم السطح لأختفي عن الأنظار. كانت تلك أولى بوادر تمردي، ومقاومة العائلة.

* * *

٢

أنا ورجال العائلة

آريس مزعجة. كثيراً ما قلت لك ذلك،
رجالها مزعجون، نساؤها ثرثارات، وأطفالها مخيفون، كثيراً ما شرحتُ لك ذلك.
لكنك لم تفهمني ...

كان المساء موحشاً، والبستان يختنق من الملل،
وأنا واقفة أمام السور الخلفي، أتأمَّل بيتك.
أنوار غرفتك مضاءة باكراً.

وصورة العرس الكئيب الذي حضرتُه البارحة ما زالت جرحاً في ذاكرتي..
خرج العريس من الغرفة يتصبب عرقاً، هجمت النساء على العروس،

كانت تبكي، وسمعتهن يرددن أن العريس لم يفعل شيئاً.

بكت أم العريس... وبعد ساعة جاء شيخ إلى البيت اختلى بالعروس وأهلها قليلاً ثم خرج.

عاود العريس الدخول، وخرج محمد بعد قليل.
دقت النسوة على باب الغرفة قبل أن يخرج،
قالت إحداهن دون خجل «يَا لأَ...».

كيف فعل ذلك في دقائق؟
لم أفهم شيئاً، لكنني تقززت حين رأيت قميص نوم العروس ملطخاً بالدماء.

والنساء يزغردن، والعروس تمثل البراءة...
ما أبشع أن تكون الواحدة منا عروساً!

اقتربت مني سهام ابنة عمي ووشوشت لي:
- هل رأيت، العروس كانت «مُصَفَّحة»(*).

لم أجبها، كنتُ قد كرهتُ نفسي، وكرهت منظر النساء فعدت إلى بيتنا، وحاولت أن أنسى ذلك العرس.
كانت تلك الطقوس غريبة على عائلتنا،

(*) التصفاح وشم على فخذ الفتاة تقرأ عليه تعويذة، هدفه حماية الفتاة من الاغتصاب، وهو عادة سائدة عند كثير من العائلات الجزائرية في الأرياف، له مفعول سيكولوجي ربما.

كنا مختلفين جداً عن باقي النساء.
أو هذا ما كنتُ أعتقده.

هبت نسمة باردة،
انطفأت أنوار غرفتك،
انطفأ قلبي، مرت سيارة مسرعة، انبعث منها لحن صاخب،
أغمضت عيني، كنت قد اشتقت إليك فجأة لكن صوتاً قطع أفكاري:
ـ لماذا تحبين هذا المكان؟

التفتُّ، كان ياسين ابن عمي.
ـ هل تتجسس عليَّ؟
أجاب وعيناه تشتعلان:
ـ نعم!

فهمتُ أنه يريد أن يقول شيئاً:
ـ ماذا تريد؟

صدمني:
ـ أريدك أنتِ.
ابتعدت عنه.
لاحقني...

أمسكني من الخلف، دفعته عني، وصرختُ في وجهه:

(*) افعل ما شئت.

- إياك أن تلمسني ثانية...
عوى كلب بالجوار.
ابتسم ياسين بخبث:
- أيتها العاهرة، نصر الدين أحق بك مني؟
صفعته، وهربت.

في اليوم التالي التقيته على السلالم، أوقفني بهدوء وقال:
- كوني مطيعة، وإلاّ فضحتك.

كان لي «راس تيس». نظرتُ إليه مبتسمة وقلت:
- دَزْ مْعَاهم(*)!!

ردَّ بوقاحته:
- ألم تجدي إلاّ نصر الدين ابن مسعودة؟

أجبته:
- على الأقل هو أنظف منك.

كان نظيفاً فعلاً، كان أكثر شيء يعجبني فيه نظافته، وغير ذلك، لم يكن فيه خبث الرجال، أو خبث بني مقران، خبث بني مقران من طراز آخر، بعضه مثل الذي حدث ذات ليلة، دخل العم بوبكر على والدي غاضباً، اختلى معه في غرفة الضيوف وقال له:
- كل بنات الجامعة يعدن حبالى، فهل ستنتظر حتى تأتيك بالعار؟

قال والدي غاضباً وردَّ عليه:

- إلى هنا وتنتهي أخوتنا.
- يا رجل، لقد رأوها مع نصر الدين ابن مسعودة أكثر من مرة.

وكأن والدي أراد الدفاع عني:
- ولكن أبناء مسعودة في العاصمة..

فيقاطعه عمي الماكر:
- إنه يأتي من العاصمة خصيصاً لرؤيتها.

انسحبت من الشرفة، ودخلت غرفة الجلوس، كانت والدتي تشاهد التلفزيون، جلست بقربها وضحكت ساخرة:
- هذا القواد، ألاَ يتعب هو والعمّة كلثوم من نسج الدسائس للآخرين؟
- كنت تتنصتين كعادتك؟
- لا شيء يُخفى عليَّ في هذا البيت.

بدا الخوف على ملامح أمي، وقالت عيونها أكثر مما قالته الشهقة، ضاع الكلام منها، وبحثت أصابعها على موضع القلب لتهدئته.
- يا ابنتي سيكسرك رجال العائلة.
- سأرى من سينكسر أنا أم هم.

قلت لها ذلك ومقولة لـ:«غي دي كار» تحضرني «أمام رجل نواجه كل الأخطار»، فكيف لي أن أواجه والدي وأعمامي وشبان العائلة؟.

كانت في يدي قوة واحدة لا يمكن أن تُقهر: «حب والدي للعلم».

كنت متأكدة وواثقة أنه لهذا السبب ستمر موجة الشجار معه بسرعة، وذلك ما كان. لكن سيدي إبراهيم اقترح شيئاً آخر حين علم بالأمر، اقترح أن أُزوَّج لمحمود أو أحمد، ولم أكن أعلم أن هذا الاقتراح سيثير صبايا بني مقران، ويحولني إلى علكة في الأفواه، لكنني لم أعبأ به، حملت حقيبتي وعدتُ إلى قسنطينة، بقيت هناك حتى بلغني خبر اعتقال محمود، اتضح أنه كان ينشط مع جماعة إسلامية متطرفة مع أنه حليق الذقن ولا يرتدي القميص. أمّا أحمد فقد فاجأني ذات يوم في الجامعة، كان مختلفاً تماماً عن أحمد الذي أعرفه في البيت، في عينيه جرأة لم أرها من قبل، قال لي:

- يجب أن نرفض أن يقرروا مصائرنا.

فهمته، كان يقصد موضوع الزواج:

- أنا رفضت.
- أنتِ هربت، وهناك في بيتنا القرار اتُخذ، وطبعاً لا تعرفين ماذا حدث بعد اعتقال محمود، لقد استجوبنا كلنا، وربما نحن تحت المراقبة، ويقول البعض إنه قد تُلَفَّق لنا أي تهمة، خصوصاً بعد أن عثروا على أسلحة مخبأة في خم الدجاج، بالنسبة لي، قام صديق بتسجيلي في جامعة «غرونوبل» وسأسافر بعد شهر أو شهرين، سأحاول أن أجد عملاً قبل بداية الموسم الدراسي...

قاطعته:

- جميل جدّاً، أين المشكلة؟

أجاب وهو يبتسم:

- المشكلة أن الجميع قرَّر أن نتزوَّج قبل أن أسافر.

صُدِمتُ لكنني فكرتُ بسرعة:

ـ و«لَلاّ عيشة» ماذا قالت؟

ـ هي تريد لي سُعدى أو ريحانة وأنا لا فرق عندي بينهما.

ضحكتُ...

فقاطعني قبل أن أقول شيئاً:

ـ تضحكين لأنك تظنين أنني بلا شخصية، لكن ثقي أنَّ واحدة من بني مقران أفضل مليون مرة من بنات الناس، هل نسيت كرنفال محمد الشريف؟

كان يقصد عُرْس ابن الجيران الذي حضرته، وكأي أنثى، ومن دون تفكير سألته:

ـ ولماذا ترفضني أنا إذن؟

نظر إليّ لحظة ثم قال:

ـ لأن نصر الدين صديقي!

لحظتها بكت قسنطينة، وطوقني الصمت، فإذا بالماضي ينزل دموعاً شديدة الملوحة، وإذا بعينيك تسبحان في السماء، وأنا، طائرة ورق أنهكها البلل.

ـ لنختبئ من المطر.

قال أحمد، لكني لم أرُدّ.

كان المطر أجمل من أن نختبىء منه، أبهى من أن نغادره، كان رجلاً مثيراً، يعرف أين يضع أصابعه، أين يرمي شفتيه، كيف يغمر الأنوثة، كيف يطوقها، كيف يغنجها، كيف يجعلها تبلغ قمة النشوة.

كان جميلاً ذلك اليوم، كان أجمل الأيام على الإطلاق، حين ودَّعني أحمد ووعدني أنه سيحدِّثك، ويبعث بعلاقتنا المنكسرة من جديد...
خفتُ.

كنتُ أحبذُ دائماً تلك المسافة بيننا، مسافة الحرقة مسافة اللاَّ لمس، مسافة الطهر.

لكني أردتُ تعذيبك أيضاً، وأردت إرباكك، وإرباك نفسي. كنتُ سادية إلى أبعد حدّ.

أردتُ أن أوقف أحمد، أن أطلب منه عدم فتح الموضوع معك،
لكنه المطر،
لكنها قسنطينة...

ضغط المطر عليَّ، تأوهت الجسور، طارت حمامات نحو الضباب...
ارتعشت هضبة الجامعة.

بلغت أصابع المطر قاعدة ظهري، تخيلتك أمامي تُلقي قصائد عينيك عليَّ، هبَّ الهواء بارداً، لم تأبه قسنطينة بذلك، رمت ما تبقى لها من أثواب على جنب، وبدأت تغتسل بدأت تُغري.

تخيلتك تضع أصابعك على شفتي، تطلب مني قبلة، كدتُ أقبلك، لولا ضجيج عمارة الآداب، وابتعادي عن المطر.

* * *

٣

تاء «مربوطة» لا غير

كان الليل في أوله، لكن الخارج كان يغطُّ في نوم عميق. فالخوف روَّض الناس على نمط حياتي جديد.

أُسدلُ الستائر باكراً وأتحاشى رؤية الفزع الذي يملأ الشوارع كل مساء.

يُخَيل إليَّ، أن الأضواء ترتجف رعباً بعد أن صارت وحيدة، وأن السماء ترتل الآيات.

أنكبُّ على أوراقي لأعيش فصول حياة تختلف، أكتب فأتوغَّل داخل أزقة الذاكرة المعتمة، وأستقرُّ عندك، لقد عرفت أنني تجاوزت سنَّ نسيانك، وأنَّ الوفاء لك صار التزاماً أخلاقياً تخطّى حدود

القلب. ويزعجني أنك تتواجد في الموقع الخطأ في الاتجاه المعاكس لأحلامي وطموحاتي.

يزعجني أيضاً أننا معاً كنا ننتمي لتلك البيئة الجبلية القاسية التي تترصد الحب بعيون الريبة، كان حتى الأصدقاء يعلنون الرفض لعلاقتنا.

أعترف لك اليوم، أنني كنتُ هشة حتى العظم، وأنني هربت منك بعد أن أعياني الخجل لمواجهة الجميع بحبك.

لم تكن تفهم كيف أتعايش مع تناقضاتي تلك، أنا البارعة في التنصت ومواجهة بني مقران بالتمرد، وجدتني عاجزة عن فك عقدتي المرتبطة بترسُّب قديم وبالٍ يخلط بين الحب والجنس.

كنتُ أصمت حين تتكلم عن الزواج.
وكنتَ تصمت لأنني لا أشاركك الحديث. فأحب صمتك وأنسى ما كنت تقوله، وأبالغ في قراءة ذلك الصمت على وقع عزفي الداخلي.
وها نحن اليوم لا يجمعنا سوى ذلك الصمت الذي أحببت.

انغمستُ في العمل الإعلامي، انضممت إلى جريدة «الرأي الآخر» المعارضة، والتي كانت مزيجاً من الإسلاميين والديموقراطيين والعلمانيين. كنا نتفق عموماً، رغم أنَّ البعض لا يصافح النساء والبعض يصافحهن، كان ذلك قبل أن تمتد الخلافات السياسية بين الأحزاب، فتصل إلينا لنصبح مؤسسة من الأعداء وتتحوّل مكاتبنا إلى مواقع حربية.

لكن حين بلغت موجة اغتيال الصحافيين ذروتها، أدركنا جميعاً أن باب الحديد الذي نغلق به مقر الجريدة لن يحمينا ما دمنا مشتتين.

أظن أننا شيئاً فشيئاً توحدنا بعد أنْ قُتل منا اثنان، وفرَّ بعضنا إلى فرنسا ولندن ودول عربية عدة. وفرَّ واحد إلى الجبل، التحق بالجماعة التي رفعت السلاح.

* * *

سنوات الموت تلك علمتني أن الحياة هباء.
ولعلّي كنتُ سألجأ إليك في تلك الفترة الحمراء.

إذْ كثيراً ما فكرتُ فيك، وقد قلتُ لنفسي لو أنك تفكر بي لسألت عني أنت الذي تعرف أن كل الصحافيين كانوا يعيشون في فوهة مدفع.

عاتبتك جداً، وخاطبتك أكثر من مرة في نصوصي المنشورة ولكنك لم تقرأني ربما. أيمكن لكل ذلك البركان الذي كان يسكن قلبك أن يخمد وتلتهمه السنوات؟

ربما هكذا هم الرجال!
إن لهم طريقة غريبة في الحب.
لن أحاكمك، سأواصل السرد فقط.

سأقول لك متى الْتَوَت جوارحي فعلاً، ومتى تحركت زلازل الداخل بقوة غيرت خارطة مشاعري.

سنة العار...
سنة ١٩٩٤ التي شهدت اغتيال ١٥١ امرأة، واختطاف ١٢ امرأة من الوسط الريفي المعدم.

ثم ابتداءً من عام ١٩٩٥ أصبح الخطف والاغتصاب استراتيجية حربية، إذْ أعلنت الجماعات الإسلامية المسلحة «G I A» في بيانها رقم ٢٨ الصادر في ٣٠ نيسان (إفريل) أنها قد وسّعت دائرة معركتها: «للانتصار للشرف بقتل نسائهم، ونساء من يحاربوننا أينما كانوا، في كل الجهات التي لم نعترض فيها لشرف سكانها، ولم نحاكم فيها النساء (...) وسنوسع أيضاً دائرة انتصاراتنا بقتل أمهات وأخوات وبنات الزنادقة اللواتي يقطنّ تحت سقف بيوتهن واللواتي يمنحن المأوى لهؤلاء...»(*).

٥٥٠ حالة اغتصاب (لفتيات ونساء) تتراوح أعمارهن بين ١٣ و٤٠ سنة سجلت تلك السنة.

تضاربت الأرقام بطريقة مثيرة للانتباه في حضور قانون الصمت. ١٠١٣ امرأة ضحية الاغتصاب الإرهابي بين سنتي ١٩٩٤ و١٩٩٧، إضافة إلى ألفي امرأة منذ سنة ١٩٩٧. والبعض يقول إن العدد يفوق الخمسة آلاف حالة. ولا أحد يملك الأرقام الصحيحة، إن السلطات مثل الضحايا تخضع لقانون الصمت نفسه.

جاءت هذه السنوات متلاحقة لتصنع سجني الذي لم أتوقعه، سجني الانفرادي، داخل وطن مليء بالقضبان.

(*) الخبر الأسبوعي، العدد ٧٥ من ٩ إلى ١٥ أوت ٢٠٠٠.

إذْ لم تعد أسوار العائلة هي التي تستفز طير الحرية في داخلي للهروب، صار الوطن كله مثيراً لتلك الرغبة، مثلي مثل ملايين الشباب الحالمين بالهجرة إلى حيث النوم لا تقضه الكوابيس، صرت أُخطط للهروب.
أريد هواءً لا تملأه رائحة الاغتصابات.

* * *

تجبرك قسنطينة على الوقوف احتراماً لمرور جنائزها، ولهذا ستتوقف عند مرور الجنازة الأولى.
ثم الجنازة الثانية...
ثم الجنازة الثالثة... أقطع الطريق،

فتحضرني مقولة «لَلاَّ عيشة»:
«حين يبدأ العام الجديد بيوم الإثنين، سيكثر الموتى من الشباب، وحين يبدأ بيوم الثلاثاء يكثر الموتى من العجزة وكبار السن، وحين يبدأ بيوم الأربعاء يموت «المال»».

وتقصد ما يملكه المرء من بقر وخراف وماعز. لا أذكر أن تلك السنة بدأت بيوم إثنين، ولكني أذكر الحزن وهو يحتمي بقضبان الجباه والخوف بحزّ في العيون، والصمت.

صمت الشوارع مخيف والناس وقوف، والنعوش الخضراء تقصد بيوتها الأبدية.

ها هي أيام الثورة تعود، الموتى في كل مكان، والقبور كالمقاهي يزورها الناس أكثر من مرة في اليوم.

أصل إلى المسرح في الثالثة والنصف، تفاجئني «كَنْزَة» بخروجها المبكر وتبادرني:

- ظننتك لن تأتي؟
- بَلا أتيت.

بعض الصمت يرافقنا عبر المنحدر، تشدني قُبلة ملصقة فيلم سينمائي، ووسط تلك الوجوه التي يعلوها الغبار لبطّالي «حي السويقة» تبدو نشازاً يثير أكثر من استفزاز.

قطعنا تلك الأصوات والروائح وتمشينا على جسر سيدي راشد. استوقفتنا امرأة تلتحف الملاءة السوداء، أخرجت زجاجة عطر وراحت ترش بقايا المزار وضريح الولي الصالح «سيدي راشد» تحت الجسر، وتتمتم بدعاء حرّك فينا الرغبة في الكلام...

- مسكينة، قالت كنزة.
- إنها أحسن حالاً منّا، يكفيها أن ترش عطرها على أطلال المزار، لتشعر بالراحة... من يبعث الراحة في نفوسنا نحن؟
- أنا عن نفسي وجدت الحل؛ سأترك المسرح، وسأتزوج ثم أعود إلى «سكيكدة»(*) موطني الأصلي.
- كنتُ أنتظر أي شيء إلاّ هذه المفاجأة.
- يُزعجك أن أترك المسرح يا خالدة؟
- إنك موهبة يا كنزة.
- ربما، لكن ليس في هذا البلد.
- عندنا فقط، تعتزل المواهب الفن قبل أن تبدأ.
- خمس سنوات وأنا أعطي وقتي وتفكيري وجهدي للمسرح

(*) مدينة جزائرية على الساحل الشرقي.

فهل أعطاني شيئاً؟ إنني أُرشق بالحجارة من طرف الأطفال، والجمهور نفسه الذي يُصَفِّقُ لي ليلاً بعد العرض، يصفني بالعاهرة نهاراً، فهل تظنين أنني سأواصل هذا النوع من الحياة؟

بعد يومين التقيت كنزة في المسرح، الأضواء مسلطة على الخشبة، وفي ركن لا يطاله الضوء بكت بحرقة ثم خرجت، ولم أرها بعد ذلك اليوم. عادت إلى سكيكدة كما عاد أكثر الناس إلى مدنهم الأصلية هروباً من المدن الكبرى التي صارت مخيفة وجارحة. عادت إلى مدفن سُرَّتها حسب معتقد الهنود والبرابرة، وفيما كنتُ أظن أنها وجدت سعادتها في الزواج، وصلتني رسالة منها بعد عدة أشهر تصف لي حياة سجنها الذي اختارته. كدتُ أحدثها عنكَ وعن حبكَ المتفرع في جسدي كجذور سنديانة عتيقة، وعن سري الجميل الذي يجعلني أواصل الكتابة وأواصل الحياة، لكني عدلت عن الفكرة، فأرسلت لها بطاقة تحمل صورة لجسر «سيدي مسيد» مع كلمة واحدة: «تماسكي».

حكاية «كنزة» جعلت الوحل يجتاح حلقي، لكن الأسوأ في تلك الأيام كانت حكاية «ريمة نجار»، طفلة في الثامنة رمت بنفسها من على «جسر سيدي مْسيد». لم أصدق أن الأطفال ينتحرون، لهذا حققت في الموضوع وبعد أن رمتني تفاصيله في أكثر من متاهة، اكتشفت أن الوالد هو الذي رمى بابنته من على الجسر، نسي الناس الاغتصابات الجماعية وصاروا يفكرون بريمة.

قال إنه خلصها من العار
لأنها أُغتصبت.

اغتصبها رجل في الأربعين، أحدب وقصير، يقطن بالحي نفسه، وله دكان صغير يبيع فيه الحلوى و«البسكويت» والعلكة.

قال إن البنت دخلت عنده لتشتري حلوى، فأشار لها أن تتناولها بنفسها من على أحد الرفوف، فيما أغلق باب المحل وانقضَّ عليها. ولم يكن صراخها ليصل أحداً، كانت هناك ورشة لتزفيت الطريق في الشارع نفسه، ابتلعت استنجادات الصغيرة. وقد جاءت توابع القضية مضحكة؛ حكم على الأحدب بعشر سنوات سجناً(*) بسبب حنكة محاميه.

في المساء بكيتُ كثيراً وأنا أكتب قصة قصيرة عن بنت تشبه ريمة وعن بطل يشبهني، وأصف شراسة الحياة.

شبعتُ بطلي المثقف، وتركت حبيبته تبكي مع الشتاء. وكنتُ تماماً كـ «غي دي كار». كان حين يأتي زوجته باكياً تسأله «من مات من أبطالك؟». كان دمعي غزيراً تلك الليلة، فقد تركني بطلي وحيدة بين الجدران، بعد أن كان يسامرني لليالٍ طويلة، ويسمح لي بالتنصت عليه وحبيبته. لقد فاجأني ذات ليلة مقمرة بشبه كبير بينه وبين نصر الدين، وقد سألته «لماذا تشبهه؟»، فأجابت الذاكرة: «نُسَخ الحب واحدة دائماً»!

فتحتُ نوافذي ليلتها على ساحة من الأحلام، وقفزت إليها منقادة بمقولة لفاطمة المرنيسي «إن الحلم أساسي بالنسبة للذين لا يتوفرون على السلطة».

(*) المادة ٣٣٦ من قانون العقوبات الجزائري الخاصة بهتك العرض.

وجدتك كما أنت، على الطريق المخترقة للحقول أمام متوسطة البشير الإبراهيمي، داكن السمرة فاتح العينين، تحمل طابة «الباسكيت»، سألتك:

- من ربح اليوم؟
- فريقنا طبعاً.
- ومن سجّل أكبر عدد من النقاط؟

رميتَ الطابة في الهواء، وتلقفتها بحركة جميلة وأنت تبتسم ثم قلت:

- أنا طبعاً.

كنت بارعاً في لعبة «الباسكيت»، متفوقاً، وذكياً، وقد أحببتك لتفوقك.

بالنسبة إليّ لا شيء يدعو امرأة لتُعجب برجل سوى تفوقه، والحب أيضاً أدرجته في تلك الخانة. سافرت نحوكَ بكل ما أوتيتُ من قوة في تلك الليلة، حتى استيقظ خجلي مع صوت زميلتي في الغرفة:

- شخص يطلبك في الخارج.

انشقّ صدري نصفين، إذْ كان الوقت متأخراً جداً فمن سيطلبني في هذا الليل؟

خرجت والخوف يسيطر عليّ، توقفت في زاوية مظلمة وحاولت أن أتبين من الشخص الذي يقف مع حراس الحيّ، وبسرعة عرفته، إنه رئيس التحرير.

* * *

٤

يمينة

نظرت إلى ساعتي وأنا أُحيّيه:

- خير؟

ابتسم واعتذر:

- الوقت متأخر أعرف ذلك، لكني عرفت من مصادر خاصة أن مجموعة من الفتيات حُرِّرْنَ منذ ساعات من أيدي الإرهاب، بعضهن في المستشفى الجامعي في جناح خاص، أريد أن تتحدثي معهن باكراً، وأريد الموضوع جاهزاً بعد الظهر.

وضع في يدي «تكليفاً بمهمة»، ودلف في سيارته ومضى. ساعتها لم أكن أعرف أنني سأسلك منعرجاً جديداً في حياتي، وأنني

بشكل ما سأخاصمك، وسأكتبك بشكل لا يتوافق مع براءتك في قصصي القصيرة.

وفي الحقيقة لم أكن واعية تماماً بما كنت أُحسه تجاهك، كانت مشاعري قد حلّت عليها العاصفة بمجرد وقوفي أمام غرفة «يمينة»، شدّتني جثتها التي تئن، إذْ لم أتوقع أن أجد أي واحدة منهن بذلك الوضع، كانت إلى جانبها فتاة أخرى، ظلت تنظر إليَّ بعينين جامدتين، وضعت أوراقي جانباً، ومددت لها يدي لأسلم عليها، لم تتحرك، سألتني بجمودها ذاك:

- من أنتِ؟

كانت ترمقني بنظرة مختلفة، عدائية ومخيفة، وكان يجب أن أتصرف معها بشكل لا يثير عدائيتها أكثر، أجبتها بسرعة وفتحت الحديث من دون أن أثير انتباهها:

- خالدة ... كيف صارت؟ (وأشرتُ إلى يمينة)

فأجابتني بجمود:

- ستموت.
- لِمَ تقولين ذلك؟
- لأنني أعرف.
- قال لي الطبيب إنها ستشفى.
- هه! وماذا يعرف الطبيب؟
- يعرف حالتها جيداً.
- وهل يعرف أنها لم تعد تريد أن تعيش؟
- وهل هذا سبب كافٍ لتموت؟
- لو أن الجيش وصل قبل أن تلد لكانت أُنقذت ربما.

- أنجبتِ؟
- نعم!
- وأين الطفل؟

ابتسمت بشكل جعلني أشك في قواها العقلية ثم قالت:
- قُتل.
- من قتله؟

غابت ابتسامتها، واكتسح الخوف ملامحها، نظرت يمنة ويسرة: ثم قالت:
- هم.
- من هم؟
- وحوش الغابة.

ثم أشارت إليّ أن أسكت، وواصلت الحديث:
- هل تعرفين ماذا يفعلون بنا؟ إنهم يأتون كل مساء ويرغموننا على ممارسة «العيب»، وحين نلد يقتلون المواليد، نحن نصرخ ونبكي ونتألم وهم يمارسون معنا «العيب»، نستنجد، نتوسلهم، نقبّل أرجلهم ألاّ يفعلوا ذلك ولكنهم لا يبالون.

علّت كُمّيْ جلبابها وقربت معصميها المشوهين مني:
- انظري ... ربطوني بسلك وفعلوا بي ما فعلوا، لا أحد منهم في قلبه رحمة، وحتى الله تخلى عني مع أنني توسلته. أين أنت يا رب، أين أنت يا رب؟

صار صوتها يرتفع شيئاً فشيئاً، ثم صارت تصرخ وبدأت تشد شعرها وتمزق ثيابها، وصراخها يعلو.

استيقظت يمينة مذعورة، وهرع الممرضون إليها، تعاونوا على إمساكها، حقنها أحدهم في ساعدها، وبعد لحظات هدأت، فحملوها إلى غرفتها.

بقيتُ مذهولة، عاجزة عن التصرف، دخلت ممرضتان طلبتا مني الخروج، لم أخرج، بقيت واقفة قرب الباب، أزاحتا الغطاء فإذا برقعة كبيرة من الدماء تغطي ساقيها، أزالتا حفاض القطن المشبع بالدم، واللحاف مع قطعة بلاستيك، كان المنظر مفزعاً، أغمضت عيني وابتعدت، بعد لحظات خرجت الممرضتان، استوقفت إحداهما وسألتها:

- ما بها؟

أجابت ومضت:

- إنها تنزف.

دخلتُ مرة أخرى الغرفة، نظرت إليَّ بذبول وقالت بصوت متعب:

- أنتِ طبيبة؟

نظرتُ إلى كيس الدم المعلَّق قرب سريرها والموصول بذراعها وحاولتُ أن أجيب، كان لساني جافاً ملتصقاً بسقف حلقي من شدة الانفعال فأومأت لها برأسي أن «لا».

نظرتُ حولي في الغرفة الواسعة ذات الثلاثة أسرّة فرأيت زجاجة فيها قليل من الماء، أفرغتها في فمي، ثم عدت قرب يمينة، كانت تراقبني وكان لون وجهها المصفرّ يؤلمني، فسألتها:

- بماذا تشعرين؟

فأجابت بصوتها المتعب:
- لا أشعر بشيء.

ابتسمتُ لا أدري كيف وقلت لها:
- الحمد لله أنك لا تتألمين.

فقالت:
- تألمتُ بما فيه الكفاية، الآن حان الوقت لأرتاح، هل أنتِ طبيبة؟
- لقد قلت لك لا، أنا صحافية.
- تكتبين مقالات؟
- نعم!
- كثيراً ما حلمت بأن أكون صحافية.
- وماذا حدث؟
- توقفت عن الدراسة حين صار عمري أربع عشرة سنة، لم يقبل والدي أن أدخل ثانوية آريس ذات النظام الداخلي.
- أنت من ضواحي آريس.
- أنا من «طابَنْدُوت».

ابتسمت لها، واقتربت منها أكثر، وحدثتها بالشاوية(*).
- وأنا أيضاً من آريس.

قلتُ لها ذلك، فإذا بها تُجهش بالبكاء، فسألتها:
ما بك، لماذا تبكين؟

(*) لهجة من لهجات البرابرة.

- تمنيتُ أن أرى أحداً من أهلي قبل أن أموت، فإذا بالله يستجيب لي، جئتِ أنتِ.

سالت دموعي دفعة واحدة، وأنا أرى ذلك الفرح الأخير في عينيها، اقتربتُ منها أكثر وهمستُ لها:
- لن أتركك أبداً، سأظل إلى جانبك، وأي شيء تحتاجين له اطلبيه مني.

لكنها بكت أكثر، وقد شعرتُ أن أنفاسها المتقطعة تعزف نشيد الموت، أردتُ أن أغير موضوع تفكيرها فسألتها:
- ما اسم الفتاة التي كانت معك هنا؟
- راوية (أجابت).
- ماذا حدث لها؟
- مثلنا جميعاً.
- كنتن كثيرات؟
- كنا ثماني، قتلت منا واحدة، قُتلت أمامنا ذبحاً بمجرد وصولنا لأنها رفضت الرضوخ للأمير. من يومها وراوية هكذا، فالمقتولة كانت قريبتها.
- كيف كانت حياتكن في الجبل؟
- نطبخ لهم، ونغسل ثيابهم، وفي الليل...

خنقتها الكلمات مرة أخرى، وعاودها البكاء، خفت أن تموت من شدة ما شهقت، ترجيتها أن تهدأ وحاولت أن أجد ما يواسيها:
- انتهى كل شيء الآن.

لكنها راحت تهزُّ رأسها أن لا، وبكاؤها يزداد ملوحة وألماً. قرأت

في وجهها صعوبة مهمتي:
ـ لا تقولي شيئاً، سأتركِكِ ترتاحين، وسأعود إليكِ وقت الغداء.

توقفتْ عن البكاء، وأمسكت بيدي ثم قالت:
ـ لو كنتِ من غير أهلي لما حدثتك عن شيء.

شعرتُ بمدى فرحها بي، شددتُ على يدها أكثر، وقالت لها أصابعي ما لم أستطع ترجمته.

ابتسمتْ، شعرتُ بارتياحها، فسألتها:
ـ هل تريدين أن أحضر لك شيئاً؟
ـ أريد راديو.
ـ حاضر، وماذا أيضاً؟
ـ لا شيء، فقط راديو.

هممت بالخروج، فإذا بها تقول:
ـ لو عرف أهلي أني هنا، فهل سيأتي أحدهم لرؤيتي؟

أجبتها من دون تردد:
ـ طبعاً.
وخرجت. كانت تلك أول كذبة أكذبها عليها.

* * *

٥

دعاء الكارثة

«الزمان هو جرح العرب، إنهم يرتاحون إلى الماضي»(*) وقسنطينة لا تتحدَّث إلاّ بلغة الماضي.

أعبر شارع «عبان رمضان»، والماضي يتناثر من حولي مع نداء صلاة الظهر: الله أكبر...

تبدو المآذن غائبة في حلم ما، تعانق البنفسج في السماء، وكأنها في حالة حب، الناس يرددون «الله أكبر».

الناس هنا لا يخالفون ما تقوله المآذن، حتى حين قالت:

(*) فاطمة المرنيسي.

«اللهم زنِّ بناتهم».
قالوا: «آمين».

وحتى حين قالت:
«اللهم يَتِّمْ أولادهم».
قالوا «آمين».

وحتى حين قالت:
«اللهم رَمِّل نساءهم».
قالوا «آمين».

كانوا قد أصيبوا بحمَّى جبهة الإنقاذ، فغنُّوا جميعاً بعيون مغمضة دعاء الكارثة...

- «اللهم زنِّ بناتهم».
- آمين.
- «اللهم رَمِّل نساءهم».
- آمين.
- «اللهم يتِّم أولادهم».
- آمين!

كانت موضة، جبهة الإنقاذ!
صرعة.
تغيير...
... ولهذا تنام يمينة نازفة في المستشفى الجامعي حاملة آثار التغيير!
ولهذا مئات الزهرات يُغتصبن، ما باركه الشعب بالدعوات كان يجب أن يصيب الشعب لا غيرا!

انتبهت أنَّ سيارة كادت تدهسني وأنا أحاول قطع الطريق.

تراجعت إلى الخلف مذعورة، أمّا شتيمة السائق فقد اخترقت أُذني حادّة مثل سكين.

كدتُ أغضب، لكن مشوار حزني كان في أوله، فرمقت السائق بنظرة لا مبالية، واكتفيت بترديد شيء بيني وبين نفسي «مسكين... إنه بلا أخلاق».

نحن لا نكون مساكين إلاّ إذا كنا بلا أخلاق.
هدأت المآذن.
خَفَّ الزحام من الطريق.

طيّرَان في السماء تعانقا، ويمينة تغني في رأسي بأنفاسها، إنها متعبة، وتحلم برؤية الأهل.

وأنا كل الأهل بالنسبة إليها الآن! أي مضيق هذا الذي تلقفني؟

ها هي المفاجأة التي لم أكن أنتظرها، أن أدخل عالم المغتصبات لا كصحافية، ولكن كفرد من الأهل، أي شيء سأكتبه عن يمينة؟ هي الممدَّدة على فرح اسمه «أنا»، هي النائمة على أمل ليس أكثر من راديو، سأحضره لها أنا، لأني أنا الأهل، وأنا الأقارب، وأنا ابنة اللسان الذي وقدّنا في يوم غير متوقع، وفي ظروف غير متوقعة.

طوال الطريق وأنا أفكر كيف سأكتب في الموضوع، بأية صيغة، بأي قلب، بأية لغة، بأي قلم؟ أقلام القرابة لا تحب التَّعَدي.

أقلام القرابة...!
أقلام الدَّم الواحد لا تعرف أن تخون!

فكيف لي أن أخون تلك الأنفاس السعيدة بحضوري؟ كيف لي أن أخون تلك العيون المعبأة بالثقة؟
كيف هي الكتابة عن أنثى سُرِقت عذريتها عنوة؟

لم أعد أعرف كيف هي الكتابة، لم أعد أعرف ألوان الأقلام.
لم أعد أعرف لون الورق.

كل شيء صار يشبه هذيان «راوية» ونزيف «يمينة»، كل شيء صار أحمر، صار دماً.
كل شيء صار ألماً.
- لن أكتب الموضوع!
انتهى الأمر.

ورقتان طارتا ... صديقان افترقا:
- صَحَّ رشيد.
- صَحَّ تَعْزيزْ، آمَنْ عَاش(*)!

انتبهت أنَّ في عينيها بريق أمل.
انتبهت أنَّ قسنطينة قد ازدادت جمالاً.

وأنَّ أشجار الصنوبر بدأت تثرثر، والهواء البارد يعاكس شعر البنات،

(*) إلى اللقاء أيها العزيز إذا عشنا.

والحكايات هنا وهناك، بين أطفال المدارس الراكضين إلى البيوت.

تمنيت أن أصبح طفلة، أن تحملني الريح إلى مدرسة البنات في آريس، أن أركض على الجسر الصغير، أن أصغي لهمسات الصفصاف، أن أرمي طائرة ورقية من على الجسر وأصفق حين تعلو، وتعلو، وتتحاشى فروع الشجر.

كانت لعبتي المفضلة أن أصنع أشياء جميلة بالورق، ما زال الورق ضرورياً في حياتي، ما زلت أصنع به أشيائي الجميلة، ولهذا لن أكتب عن يمينة، ولن أسمح للمصور أن يأخذ صورة لحزنها، ويغطي عينيها لئلا يتعرَّف إليها أحد.

هناك قضايا لا تحلها صرخات الجرائد!
هناك قضايا يحلها العدل، يحلها القانون، والضمائر الحية.

هنا، العدل يصنعه الرجال حسب تصوراتهم الضيقة، فالمادة ٣٣٦ من قانون العقوبات الجزائري الخاصة بهتك العرض تنص على «معاقبة كل من ارتكب جناية اغتصاب بالسجن المؤقت من خمس إلى عشر سنوات، وإذا وقع هتك العرض ضد قاصرة لم تكمل السادسة عشرة فتكون العقوبة بالسجن المؤقت من عشر إلى عشرين سنة»... القانون ليس صارماً، مقارنة مع القانون الفرنسي الذي ينص على ظرف مشدد، يكمن في التعدي على جسم الضحية بالاعتداء الجنسي، فترفع العقوبة إلى عشرين سنة نافذة. الرجال «يُفَصِّلون» الإسلام على أذواقهم.

فمن يعرف رحمة الإسلام من بين كل هؤلاء؟

لا أحد!
فالبعض يغتصب النساء باسمه.
والبعض ينبذهن باسمه.
والبعض يمنحهن تعويضاً من الولاية يعادل ألفي دينار باسمه.
والبعض ينكر أنهن ضحايا، باسمه.
والجمعيات النسائية تستنكر وتصرخ.
وجمعيات ضحايا الإرهاب تستنكر وتصرخ.

ووحدهن المغتصبات يعرفن معنى انتهاك الجسد، وانتهاك الأنا. وحدهن يعرفن وصمة العار، وحدهن يعرفن التشرد، والدعارة، والانتحار، وحدهن يعرفن الفتاوى التي أباحت «الاغتصاب»:
«الأمير هو الذي يهديها.
لا يقبلها إلاّ من أهديت له، وبإذن الأمير.
لا تجرد من الثياب أمام الأخوة.
لا يجوز النظر إليها بشهوة.
لا تضرب من الأخوة بل ممن أُهديت له، فعليه أن يفعل بها ما يشاء في حدود الشرع.

إذا كانت سبية وأمها، دخلت على أمها، فلا يجوز أن تدخل على ابنتها.
إذا وطأها الأول فلا يجوز وطؤها إلاّ بعد أن تستبرئ بحيضة، وتجوز المداعبة (مع الغزل).
إذا كان الأب وابنه فلا يجوز الدخول على نفس السبية.
إذا كانت سبية وأختها، لا يجوز الجمع بينهما مع مجاهد واحد»(*).

(*) وثيقة عُثر عليها بعد مجزرة بن طلحة واجتياح الجيش الوطني

بشكل ما كنت أعرف كل هذه الأشياء إثر تحقيق سابق قمت به، والناس يعرفون، ورجال القانون يعرفون، لكن من يعرف فظاعة وهول التجربة، غير زهرات يعشن اليوم بين أشواك العار والجنون؟

أأفضح يمينة؟
أأفضح نفسي؟

غداً سيقول الأقارب والأهل وكل من يعرف اسمي: «هذه ابنة عبد الحفيظ مقران تفضح واحدة منا».

كيف وصلتْ بي الأمور إلى هنا؟
كيف فكرتُ بهذه الطريقة؟

طردتُ كل تلك الأفكار وجلستُ أمام رئيس التحرير صامتة. ظلَّ يتكلم وأنا لا أسمعه، ثم اقترب مني وصرخ في وجهي:
- ما بك اليوم؟

انتفضت، وكدتُ أقول له:
- كيف وصلتُ إلى هنا؟

إذْ لم أعد أتذكر كيف قطعتُ كل تلك المسافة من وسط المدينة إلى دار الصحافة.

الشعبي لمنطقة أولاد علال، وثيقة توضح أدبيات «الوطء» حررت يوم ٥ جمادى الأولى ١٤١٨هـ. كما هو واضح. ومصدر الفتوى مجهول تماماً.

نظرت إليه بعينين ضائعتين، فقال لي وهو يسحب سيجارة ويحاول إشعالها:

- أين وصلتِ في التحقيق؟

عدتُ إلى واقعي:

- لِمَ لا يصلي الناس مثلما كانوا يصلون على أيام «الفيس»(*) ويطلبون المغفرة، والرحمة وإحلال السلام؟

توقف عن الحركة قليلاً، أطفأ سيجارته قبل أن يُدَخنها، وعاد إلى مكانه ثم قال:

- ما الذي حدث في المستشفى؟

عدتُ إلى واقعي أكثر وأجبت:

- إنها مأساة!
- اكتبيها إذن.
- لا ...
- نعم؟
- لا، لن أكتب شيئاً عنهن؟
- لست بوعيك على ما يبدو، هل أنتِ مريضة اليوم؟

ابتسمت:

- لا، لست مريضة.

هزَّ كتفيه:

(*) مختصر اسم «الجبهة الإسلامية للإنقاذ».

- إذن؟
- إذن... سأكتب عن الدعاء!
- أي دعاء؟
- دعاء «الفيس»... هل تذكره؟ لقد رُدِّدَ في كل المساجد أيام الإضرابات، ذلك الذي يقول «اللهم زنّ بناتهم، ويتّم أولادهم، ورَمِّل نساءهم... إلخ». سأسأل الناس الذين ردّدوه، سأسأل ضمائرهم، أريد أن أعرف مستواهم، هل كانوا يعرفون ماذا يقولون؟ لماذا انقادوا وراء أئمة «الفيس» وطلبوا بالإجمال طلباً غريباً كهذا من الله.

قاطعني رئيس التحرير:
- خالدة... أريد أن تكتبي تجربة هؤلاء الفتيات؟

وقفت، تحركت في غرفة المكتب قليلاً:
- لقد كتبتُ في الموضوع سابقاً ...
- كتبتِ ... قدّمت إحصائيات.
- نعم.. قلت إنّ خمسة آلاف امرأة اغتُصبنَ منذ سنة ١٩٩٤، وقلتُ إن ألف وسبعمائة امرأة اغتُصبن خارج دائرة الإرهاب. قلت إن الوزارة لا تهتم، قلت إن القانون لا يبالي، قلتُ إن الأهل لا يبالون، طردوا بناتهم بعد عودتهن، قلتُ إنهن أصبن بالجنون، ارتمين في حضن الدعارة، انتحرن... هل تحرّك أحد غير خالدة مسعودي(*) ومثيلاتها؟

قاطعني بصوت مرتفع:

(*) مناضلة نسوية في الجزائر لها كتاب بالفرنسية عنوانه: «امرأة واقفة».

ـ نحن لسنا القانون؟ نحن صحافة.

قاطعته أنا أيضاً صارخة:
ـ نحن سخافة.

ضرب بقبضته على الطاولة:
ـ ما الذي أصابك اليوم؟
ـ تخيَّل أن ابنتك اختُطفت ذات ليلة، اغتُصبت وحبلت، وأنجبت عاراً، وهي الآن في المستشفى الجامعي تنزف، وأجيء أنا كصحافية لأقول إن ابنة فلان حدث لها كذا وكذا، هل ستقبل؟

ضحك ساخراً وهو يقترب مني:
ـ منذ متى ذكرنا أسماء الناس في هكذا حالات؟
ـ الحقيقة تكشف الأسماء والألقاب، لا أحد سيصدقنا إذا لم نكتب الحقيقة بأكملها...
ـ خالدة... Sois Bref(*) قالها غاضباً.

وبهدوء أجبته:
ـ Bref ... لن أكتب عنهن... سأكتب عن الدعاء.

أخذ نفساً عميقاً لاستعادة هدوئه، ثم قال لي وهو يضغط على كل كلمة يقولها:
ـ الخطف والاغتصاب أصبحا استراتيجية حربية منذ ١٩٩٥

(*) اختصري.

وأداة للصراع المسلح بين الجماعات الإسلامية المسلحة والمجتمع الأعزل، كيف سيفهم العالم ما يحدث عندنا إذا لم نكتب نحن عنه؟

ضحكتُ، ضحكتُ من كل قلبي:

ـ تبدو مضحكاً... (واصلتُ بسخرية) العالم سيقرأ جريدتنا التي لا توزع عشرة آلاف نسخة في الوطن ولا تصل حتى جيراننا في المغرب وتونس، ولا تدخل الإنترنت؟ «يا راجل مَا تْخَليك مَعَايَ» (قلتها بلهجة مصرية) وخرجت!

* * *

٦

الموت والأرق يتسامران

ها هو جسر «ريمة»...!
تشدُّ الحبال ماضيه العتيق في الانتحار!
ها هو القعر المخيف لوادي الرمال، حريص على إخفاء أسرار موتاه!
ها هي المستشفى على بعد مئة متر مِنّي!

وأطفال هنا وهناك تحت أشجار هذه الحديقة الصغيرة يبيعون السجائر، ومن تحت الطاولات يبيعون المخدرات. قسنطينة الجميلة! وحده الفقر تطاول على عِفَّتك. أنتِ المدينة التقية التي كانت لا تدخلها الخمور، مات تاريخك الجليل، وصارت حدائقك تعجُّ بالشواذ والسكارى والمخدرات.
على بعد مئة متر... يتجاور الطهر والنجاسة.

يتكاثر المرض في الحدائق. هه... لمحت رجلاً يستمني واقفاً قرب درابزين الحديقة. خفضت نظري واحترق قلبي من الخجل.
تمنيت لو أني سلكت طريقاً أخرى غير هذه، لأصل إلى المستشفى.

مال عاشق وسخ على حبيبته وقال لها:
- فُكّي الخمار.

تغنجت، بانت أسنانها التي تراكم عليها الوسخ.
مرَّ رجل عجوز قربهما، وبصق.

أسرعتُ في خطاي،
المستشفى يقع في أعلى الصخرة، ولهذا، الهواء أكثر برودة وأكثر قساوة أيضاً. فتحت «شمسيتي»... كان المطر قد بدأ ينزل.

في الثانية والنصف بعد الظهر كنتُ أمام يمينة، أحضرتُ لها كيساً من البرتقال، راديو، كتباً لغادة السمان، وقميص نوم عليه أرانب صغيرة.

ابتسمت لي:
- ظننتكِ لن تأتي.

قلتُ لها باللهجة المصرية:
- يا لَهْوِي بَالي، وِدِي تيجي!

ضحكت.
كانت تلك أول مرة أراها تضحك.

أخرجتُ عَصّارةً من حقيبتي وقلت لها:
ـ سأعصر لك البرتقال، إنه جيد لك، وسأترك لك العصّارة، إذا أردت مزيداً من العصير.

نادي على «صَلِيحَة» المرضة، إنها صديقة لي ستعصر لك المزيد، واطلبي منها ما شئت، إنها شاوية هي الأخرى من «المعذر»(*).
ـ وهَلْ تعرفني؟
ـ حدَّثتُها عنك وأنا في طريقي إليك، إنها بالطابق «التحتاني».
ـ وهل يمكنها أن تترك عملها وتأتي من أجلي؟
ـ لا تهتمي بهذا الأمر.

كانت قد ازدادت شحوباً.
شعرت أنَّ الموت يركض نحوها مستعجلاً. للموت رائحة غريبة، تشبه رائحة الأدوية والمستشفيات، وقد أردت أن أبعد فكرته عَنّي، لكنه اقترب كثيراً. كانت يداها قد ماتتا وهما تمسكان بكتاب غادة السمان. سألتني:
ـ هل تكتب قصصاً جميلة؟

أردتُ أن أُضحكها مَرّة أخرى، فقلتُ لها بلهجة إسكندرانية:
ـ أَيْوهْ، دي حِلْوَة بشكل!

ضحكت وقالت:
ـ سأقرأه.

(*) قرية من قرى الأوراس قريبة من آريس.

لكن العبوس عاودها وهي تواصل حديثها:
- قد لا أقرأ أكثر من كتاب واحد، لماذا أحضرت ثلاثة؟

فهمت ما تقصده:
- ستقرئينها كلها،
- الموت لا تعنيه طقوس الحياة.
- لماذا تتحدَّثين عن الموت كثيراً؟ إنك بين أيدي أطباء، ووضعك مستقر، وأنا معك، والكابوس الذي عشته انتهى.

غيَّرت الموضوع:
- قبل أن تَصِلي بقليل، حدث شجار بين إحدى البنات اللواتي حُرِّرن معنا، مع أحد الأطباء، لقد طلبت أن تُجرى لها عملية إجهاض ورفض الطبيب لأنه لا يملك الصلاحيات، القانون يمنعه، تصوري!

أخرستني الدهشة، فيما واصلتْ الحديث:
- «أي قانون هذا الذي يجبر المرأة على قبول ثمرة اغتصاب كرامتها وإنسانيتها في أحشائها؟».

فقدتُ القدرة على الكلام.
سكتت يمينة، دخل الموت عبر النافذة، وجلس إلى قربها... كان يجب أن أغلق النافذة قبل ذلك. استأذنتها وخرجت قليلاً، توجهت نحو الطبيب المناوب لأستفسر عن الموضوع.

كان يتناول غداءه مع ممرضة، قرعت الباب المفتوح ودخلت، نظر إليَّ مبتسماً وقال:

ـ وصلتك الأخبار وجئت تستفسرين؟

أجبته:

ـ سأنتظرك حتى تنهي غداءك.

وضع ما تبقى من قطعة «الساندويش» جانباً وقال لي:

ـ لنفرض أنني أجهضتها، ماذا سأكتب في ملفها؟

عليَّ الحصول على محضر الشرطة أولاً لإثبات أن هذه المرأة كانت ضحية اغتصاب إرهابي.

أحسست بموجة الغضب المتأهبة في كلامه فقلت له:

ـ أنا لا أستجوبك كصحافية، أنا أناقشك كفضولية أو كصديقة إن سمحت لي بذلك، إننا نعرف بعضنا منذ سنوات!

تراجعت موجة غضبه وتحدَّث بهدوء أكثر:

ـ صدقيني، إني أتعاطف معها، إنها حامل في أسبوعها الثاني، وهذا يعني أن فرصة الإجهاض لا تزال متوفرة، لكن القانون لن يرحمني إذا تصرفت من نفسي...

ـ وما العمل؟

ـ حالما نحصل على المحضر كل شيء سيتم بسهولة.

لم يكن الأمر سهلاً كما تخيله الطبيب، في قسم الشرطة عرفتُ أن التحقيق في الأمر لم يبدأ، وقد قال لي أحد الضباط إنه من الصعب التأكد ما إذا كانت الفتيات خُطفن أو أنهن التحقن بمحض إرادتهن بالإرهابيين في الجبال، فأغلبهن لهن وثائق تثبت انتماءهن لتيارات

إسلامية منها جبهة الإنقاذ.

- هذا ليس سبباً كافياً لاتهامهن (قلت له).

فقال ساخراً:

- إذن ما هو؟ سبب لتبرئتهن؟

أجبته:

- أي امرأة هذه التي تذهب إلى مقر حزب وتعلن انتماءها؟ إنك تعرف جيداً أن أغلب النساء لسن مسؤولات عن أنفسهن فغالباً ما يقوم أحد رجال العائلة بتسجيلهن كمنتميات لأحزاب فيما لا علاقة لهن تماماً بالسياسية.

نظر إلى ساعته ليفهمني أن وقته ضيّق وقال لي:

- حين نحقق في الأمر قد نصل إلى هذه الحقيقة، عودي إلينا بعد أسبوعين أو ثلاثة...

طُرِدتُ بطريقة لبقة، وقد تقبلت ذلك.
كان ذلك الجزء السيئ في مهنتي.

في المساء، وقفت طويلاً أمام النافذة، كانت الأضواء تموت على الأرصفة، والصمت سيد الشارع «Seul le silence à du Talent»(*). لهذا تبدو قسنطينة أكثر بلاغة، فاتنة كما لم تكن من قبل، شاعرة كما لم تكن أبداً، اقتربت من الزجاج أكثر، وقبّلتها، هزّت كتفيها غيرَ مبالية وابتعدت خلف ستار من المطر. هكذا هي قسنطينة،

(*) «وحده الصمت له الموهبة» عبارة للكاتب الجزائري مالك حداد.

تغريك ولا تؤمن بالحب، تثيرك ولا تؤمن بك، تستدرجك نحو الانصهار لتتخلّى عنك، وتحتمي دوماً بالصمت.

قلبتُ الصفحات الكثيرة التي كانت تنام على طاولتي، وتوقفتُ عند صفحة البارحة.
أدنتك مرّة أخرى حين واصلتُ الكتابة.

وجدتُ شبهاً كبيراً بينك وبين هذه المدينة، لماذا لا تتذكرني رغم كل ما كتبته عنك؟ أحقاً لم تفهمني أنت الذي تعرف أنّ «Le romancier ne romance que sa vie»(*) أحقاً؟

كتبتُ حتى انتصف الليل، حررتُ مزيداً من الأسئلة، وأعتقت مزيداً من الذكريات، ثم تمددتُ على فراشي، وعبثاً حاولتُ أن أنام، فبعد الكتابة أصاب بحالة عشق لكَ، فينتفض القلب كأنه يحب لأول مرة، تستيقظ حواسي كأنما حلَّ عليها الربيع، وتراودني الأحلام حلماً بعد حلم.

عبثاً حاولت أن أُغلق عليك أبواب الذاكرة، كُنتَ قد انبعثت من كل الفجوات، وقد أبصرتك كعلامة ضوء وسط العتمة التي تخيّمُ على الغرفة. كُنتَ قريباً مِنّي، فإذا بك كما ذات يوم بحذائك الرياضي الـ:«Nike»، ببنطلونك «الجينز» الباهت اللون، بقميصك الرياضي الأبيض، برائحة «Fa» المنبعثة منك بكل تفاصيلك الهادئة، تعيدُ لي دفتري الذي استلفته مني، قُلتَ لي:
ـ تأكّدي من أنَّ دفترك عاد إليكِ سالماً.

(*) «الروائي لا يروي سوى حياته»، الكاتب نفسه.

قلت لك:

- أنا متأكدة من أنه سالم.
- ما يُدْريكِ؟ قد تكون قطتي لعبت ببعض أوراقه.
- سأسامحها لأنها قطتك.
- أمّا أنا فلن أسامحها.

ضحكت، ثم فتحته، فإذا بحديقة تطوّق أنفي.
كان عيدي السّابع عشر يومها.
- كل سنة وأنتِ بخير (قلتَ).

فتحتُ بطاقة الورود الفواحة وقرأتُ:
«Poésie, tu n'es que poésie dans ma vie»(*).
ها أنا ذي قصيدة منسية في حياتك.

وها هي سنتي الثانية عشرة بدونك. وها هو القمر الشتائي تدثره الغيوم، لم يعد يضيء جنتنا الصغيرة التي لعبنا فيها دور آدم وحواء.
ها هي نافذتي تفتح على شارع خالٍ، على شجرة وحيدة على عمود كهرباء مكسور، على عيون قسنطينة التي أعياها الأرق.
النوم لا يخاصم إلاّ العيون الوحيدة.

لا أدري كم ساعة تقلّبتُ في الفراش، لكنني استيقظت متأخرة،

(*) شعر، لست سوى شعر في حياتي، معنى مأخوذ عن عبارة لمالك حدّاد.

«Poesie, tout n'est que poesie dans la femme».

شعر، كل شيء شعر في المرأة.

زميلتي في الغرفة كانت قد غادرت، ورأسي مثقل بالذكريات والكوابيس.

تذكرْتُ يمينة،
حضَّرتُ نفسي بسرعة، وخرجت.

* * *

٧

جولات الموت

كان الموتُ يحاذيها تماماً، وقد صمَّمْتُ على ألاّ أبكي أمامها أبداً، اقتربت منها، لمست يديها الميّتتين، قالتا البرد بصيغة مخيفة جدّاً. قالتا الموت بالأحرى. ارتبكتُ، فتوجهتُ نحو النافذة لإغلاقها، ولكنها بادرتني:

- لا تغلقيها أريد هواءً.
- لكنَّ يديك كقطعتي ثلج.
- نار الغضب لا يطفئها الثلج. لا يطفئها شيء.

لم أجد ما أقوله لها، فأدرت الراديو حتى لا يزيد ارتباكي.

قالت المذيعة:

- يومكم كذب اليوم، حضّروا أكاذيبكم الجميلة، واتصلوا بنا، سنختار أجمل وألطف كذبة ولكم منا هدايا جميلة.

قلتُ ليمينة:
ـ إنه الأول من أفريل(*)، هل كذب عليك أحد اليوم؟

أجابت والحزن لا يفارق ابتسامتها:
ـ إنه اليوم الوحيد الذي ذقتُ فيه مرارة الصدق.
ـ لِمَ؟ (سألتها).
ـ أخبرني الضابط أن أهلي رفضوا استقبالي من جديد، اتصل بوالدي عن طريق شرطة آريس.

بكت قليلاً ثم أردفت:
ـ أنكر في البداية أن له بنتاً.

اختنقتْ الدموع من جديد، ضغطتُ على يدها، شدّت على يدي بأصابعها الضعيفة وقالت:
ـ سألني الضابط هل اختطفت أم التحقتُ بالإرهابيين لوحدي، تصوري؟

قاطعتها لأُخفف عنها:
ـ إنها إجراءات عادية...

قاطعتني هي الأخرى:
ـ الإجراءات العادية لمن على فراش الموت؟
ـ كل شيء سينتهي، سترين.

(*) (أبريل ـ نيسان).

جاء صوتها مبللاً بالدموع:

- اشتقتُ لأخي «بوحا»(*).
- كم عمره؟
- عشر سنوات تقريباً، كان لا ينام إلاّ بجانبي، لا يأكل إلاّ من يدي، عادة أُحضِّر له «مَفَاسْ»(**) بدون حر، فيقطف لي الكثير من الخزامى كهدية لي، أتركها حتى تنشف وأخبئها في أكياس صغيرة بين ثيابي، ذلك يعطيها رائحة جميلة.
- لِديك أخوة غيره؟
- أُختي «حَدَّة» متزوجة ولها خمسة أطفال، أخي علي في الجيش، كان سيتزوَّج في الصيف المقبل ولكن عروسه خُطفت في الليلة نفسها التي خُطفتُ فيها أنا، ظلت معي عدة أيام وليالٍ ثم أخذوها إلى مكان آخر...

تنفسَتْ بتعب، فقلت لها:

- ارتاحي إذا كنتِ متعبة، لا تتحدَّثي كثيراً. أجابت:
- لا، لست متعبة، أشعر أن جسدي مات، لا ألم فيه، أشعر أنَّه فُصِل عني.
- هذا بسبب المسكنات، الحمد لله أنها أعطت مفعولاً.

واصلت الكلام:

- أخي يحيى في ثانوية آريس، إنه ذكي جدّاً يحصل على علامات ممتازة، وعلي مُصِرٌ على أن يُعلِّمَهُ ليصبح طبيباً.

(*) ما يعني عند الأمازيغ (البرابرة) محمد.

(**) أكلة بربرية تشبه البيتزا، حشوتها مكونة من البندورة والبصل والفلفل الأخضر الحار، وقطع من الشحم المقدَّدْ.

- و«بوحا» أليس مثله؟

مرة أخرى ابتسمتْ ابتسامة الألم تلك، وقالت:
- «بوحا» متخلِّف عقلياً، لكنه طيب القلب، ويفهم كل ما نقوله له. هذا حظه. البطن الواحد يخطئ أيضاً.

لم تكن تقاوم الموت، كانت تساكنه باستسلام، ولم أكن أفهم كل تلك المماطلة من طرفه، كان بإمكانه أن يريحها مرة واحدة، ولكنه يستحوذ على أعضائها عضواً عضواً، يجالسها، يلاعبها، يهمس لها أنه سينهي الموضوع قريباً، يعطيها أملاً في الخلاص، ويترك لعواطفها متسعاً من التوجع.
- حتماً أُمي تبكي الآن.
- لا تفكري كثيراً في ما يثير مواجعك.
- ليلة جاء الإرهابيون عندنا، توسَّلتُهُم، قبّلتُ أرجلهم، ترجَّتهم أن يتركوني، ولكن أحدهم ضربها بكعب بندقيته على رأسها فسقطت مغمياً عليها، وحين تدخَّل والدي قال له أحدهم:
- «ابنك التحق بالطاغوت وهذا جزاؤك لأنك تركته»... أحدهم كان من أبناء الجيران، التفتَ إليه والدي وقال له: ألا تعرف أنَّ الفقر هو الذي أجبره ليلتحق بالجيش؟ فبصق عليه ابن الجيران وسكت والدي خوفاً من الأسلحة المصوبة نحوه... كان الليل مخيفاً، وعيونهم شرسة ولحاهم طويلة، ورائحتهم لا تزال في أنفي، شبيهة برائحة المرض، عرق ووسخ.

صمتت، ثم بدأت أنفاسها تتسارع، ثم صارت ترتجف، ركضتُ نحو الطبيب وتركته يعالجها فيما بقيت أنتظر في الصالون.

مرت ساعة...
كانت يمينة قد نامت...

الطبيب غير متفائل، الموت يتجوَّل في الأروقة، ويسخر من تمسكنا بالحياة.
ـ ستموت يا حكيم، أليس كذلك؟

أومأ برأسه أن نعم، ثم قال:
ـ لقد مَزَّقوا أحشاءها تمزيقاً، وأتعجب كيف عاشت كل هذه الأيام.
فكَّرتُ أن أبقى إلى قربها قليلاً، فعدتُ إليها.

أخرجتُ كتاباً من حقيبتي ورحت أواصل القراءة فيه. عند الظهر فتحت عينيها من جديد. ابتسم الاصفرار الذي يلوِّن الشفتين. الأسود في عينيها كان بعيداً، النظرة مُعَلَّقةٌ في السماء.

قالت بصوت يشبه الحفيف:
ـ أريد أن أرتدي القميص الذي أحضرته لي.
ـ حسناً، قلتُ لها.

أزحت الغطاء عنها، وشلّحتها قميصها، فكشف الجسد عن كل ما عاناه: آثار تعذيب، خدوش، وبقايا جراح...

مَدَّت يدها كطفلة صغيرة، تستعجلني لألبسها القميص الجديد.
ابتسمت أكثر وقالت:
ـ هذه أجمل هدية تلقيتها في حياتي. شكراً لكِ.

نامت بعد لحظات.
غطيت الأرانب الصغيرة برفق وانسحبت.

قال الطبيب:
ـ قد تعيش، ولكن بمعجزة.

في مكتبي بمقر الجريدة لم أستطع أن أكتب، كان الاصفرار قد اجتاح رأسي، والأرانب الصغيرة كفَّت عن اللعب، وآثار التعذيب، والخدوش وبقايا الجراح تناثرت على الورق.

أدرت الراديو، وفتحت الكتاب الذي كنتُ أقرأه، قرأت فصلاً وبعض الفصل، ثم قررتُ أن أغادر.

أشجار الزيتون على حوافّ الطريق مثل أطفال في ميتم، السماء رمادية وبنفسجية عند الغروب، لقد تأخرتُ على يمينة، ما كان يجب أن أنزل إلى «الجريدة»! أسرعت الخطى، ثم قررت أن أختصر المسافة، أوقفت سيارة أجرة وتوجهت نحو المستشفى الجامعي.

حين وصلت، شعرت بحالة طوارئ في الطابق الذي تقيم فيه المغتصبات.
ـ ما الذي حدث؟ سألت.

أجابت إحدى الممرضات:
ـ لقد انتحرت إحداهن في دورة المياه.

ركضتُ نحو غرفة يمينة، كانت لا تزال نائمة، فانفجرتُ باكية،

خفتُ أنْ تكون هي المنتحرة، لكنها كانت هنا مع أرانبها الصغيرة مع رائحة البرتقال، مع أحزان فلسطين المنبعثة عبر الراديو مصحوبة بعزف الناي. مسحتُ دموعي، وتنفستُ الصعَدَاء وأنا أراقب صدرها البريء يقود جوقته الخاصة في معزوفة هادئة.

وضعتُ حقيبتي جانباً، وخرجت من الغرفة، لأستفسر عمّا حدث.
- نفسها الفتاة التي طلبت الإجهاض البارحة، أشعر بشيء من الذنب نحوها، قال الطبيب.

كان الألم قد تسلّق قفص صدري، قلتُ له:
- الآن تشعر بالذنب c'est gentil(*) حكيم؟!

قال وعلامات التأثر بادية عليه:
- صدقيني كنتُ حائراً أمامها، كنتُ عاجزاً بالأحرى، فاليوم بعد أن استجوبتها الشرطة، طلبتُ المحضر لإتمام عملية الإجهاض، لكن الضابط قال لي إنه من الصعب الحصول على المحضر قبل جمع أطراف التحقيق كلها وقد يأخذ ذلك وقتاً بين شهر وشهرين، وحين علمتْ «رزيقة» بذلك...

قاطعته:
- من «رزيقة»؟

أجاب متمماً حديثه:

(*) هذا لطف منك.

- المنتحرة، حين علمتْ بذلك قرّرتْ إنهاء حياتها. وما أثر فيَّ فعلاً الرسالة التي تركتها.
- رسالة؟

نعم تركت رسالة باسمي، توصي بالتبرع بكل أعضائها للمرضى المحتاجين لذلك. يبدو أنها متعلمة، حتماً جامعية، لتتصرّف هذا التصرُّف.

* * *

٨

«الطيور تختبئ لتموت»(*)

الزهور تنمو أيضاً على القبور.
ماتت «رزيقة»، و«راوية» نقلت إلى مستشفى المجانين، ويمينة لا تزال تتمسك بالأرانب الصغيرة، وأغنيات «سيرتا»(**) وقصص غادة السمان. قرأتُ الكتب الثلاثة، وطلبت مني أنّ أحضر لها رابعاً، فكرْتُ أن أحضر لها مخطوطي الذي لم أجد له ناشراً، كنتُ قد وضعته عند ناشر، سُرَّ به كثيراً لأن اسمه «محجوبات»، ويوم ذهبت لتوقيع العقد معه، سألني:

- كم Recettes(*) يحتوي الكتاب؟

(*) عنوان مسلسل تلفزيوني فرنسي قديم.

(**) الاسم القديم لقسنطينة.

(***) وصفة طبخ.

كان من الواضح أنه لم يقرأه، فقلت له:

- عن أي كتاب تتحدَّث؟

سألته ورحتُ أتأمّل فوضى ملامحه، شعره الجعدي الكثيف ذو النصف المبيض تقريباً، عينه الأصغر من الأخرى، ذقنه المزدوجة، شفتاه الزرقاوان من كثرة التدخين، أظافره غير النظيفة، خنصره ذات الظفر الطويل. كان يمكن أن يكون أي شيء إلاّ ناشراً، رغم بذلته المستوردة والأنيقة.

قلت له حين تردَّد في الإجابة:

- الحشوة هي أهم شيء في طبخات المحشي، يجب أن تكون نظيفة ومتناسقة المقادير. كنتُ أقصده هو، لكنه لم يفهم.

قال:

- وأنتِ هل أعطيتِ أهمية للحشوة في كتابك؟

قلتُ له:

- لماذا تسألني هذا السؤال؟

قال:

- أليس كتاباً عن (المحجوبة)(*)؟

انفجرتُ ضاحكة وأجبته:

- إنها مجموعة قصص؟

(*) فطاير رقيقة تحشى بالبصل والبندورة، وأشياء أخرى.

حكَّ ذقنه المزدوجة وقال لي بدون أي خجل:

ـ لَقْصَايَصْ خَاطِينِي يا آنسة(*).

حملتُ مخطوطي وخرجت.

عند الناشر الثاني حاولتُ أن أكون أكثر وضوحاً، غيرتُ عنوان المجموعة إلى «دمى شرقية».

من الوهلة الأولى عرفت أنه أُمِّيّ، أمسك المجموعة بين أصابعه وراح يتأمل سمكها ثم نادى على شخص اسمه مازن، استنتجت أنه سوري من اسمه ولهجته وملامحه، قلتُ له: أنت سوري أليس كذلك؟

أجاب: شْلُونْ عْرفتيني؟

كانت إحدى هواياتي التكلم باللهجات العربية فقلتُ له مُقلّدةً لهجته:

ـ مَا بَدّها ذَكَا، المصريين بيشبهوا حسني مبارك، الليبيين بيشبهوا القذافي، والسوريين بيشبهوا حافظ الأسد...

ضحك الناشر، وضحك مازن ثم قال:

ـ وإنتو ليش ما بتشبهوا رئيسْكُونْ؟

أجبته مازحة:

ـ في الجزائر كِلّيَاتْنَا رُؤسَا، مْشَانْ هِيكْ كُلّ وَاحَدْ بيشبه حَالُو!!

قال الناشر:

(*) القصص ليست من اختصاصي.

ـ البابور اللي يَكْثرُو رُيَّانُو يَغْرق(*).

كان أمياً، لكنه يختلف عن الناشر الذي قبله، أعطى المخطوط لمازن وقال له: اقرأه، ورُدّ على الآنسة. ثم انتقل بحديثه إليَّ:

ـ مخطوطك صغير، قد لا يكلفك أكثر من مبلغ بسيط. سألته:

ـ مبلغ بسيط، في حُدُودِ كَمْ؟

أجاب:

ـ في حدود الخمسة ملايين.

ـ لكن هذا مبلغ كبير بالنسبة إليّ.

قال:

ـ سنجد صيغةً للاتفاق إذا كان كتابُكِ جيداً.

بعد أسبوع اتصل بي في المكتب، قال لي إنَّ مخطوطي جميل ويستحق النشر، ذهبت لرؤيته لإتمام الاتفاق فتفاجأتُ به يطلب مني الزواج، قال لي بصراحة:

ـ أريد امرأة مثقفة بمستوى نساء بعض الناشرين العرب الذين أتعامل معهم، والشخصيات التي أعرف. اعتذرتُ له، كان في عمر والدي، وثروته لن تُحسّن حتماً من مستواه العلمي.

وضع يده في يدي وصافحني، ثم قال:

ـ حضري المبلغ إذن وسأنشر لك الكتاب.

* * *

(*) مثل جزائري معناه: السفينة التي يكثر ربابنتها تغرق.

بَدَت يمينة أكثر تَحمُّساً في ذلك المساء رغم شحوبها وذبولها. تحدَّثت كثيراً، وروت لي قصة «رزيقة»:

ـ كانت أجملنا، لهذا أخذها الأمير لنفسه، لكنها قاومته مثل وحشة، وخدشت وجهه وكادت تعمي إحدى عينيه. لقد تركت له ندبة فوق العين تماماً. القذر استعان برجلين واغتصبها أمامهما، وقد حاولت الهروب مرة، لكن حية لسعتها، فعُثر عليها في حالة سيئة، وقد عالجها طبيب إرهابي.

قاطعتُها:

ـ طبيب وإرهابي؟ كيف ذلك؟

أجابت:

ـ بعضهم «قَارْيِينْ»(*)، هي نفسها تعرَّفت من بين الإرهابيين على زميل لها كان معها في الجامعة. في الجبل عندهم أدوية، وهواتف، وأجهزة كثيرة.

خفتُ أن أتأخر أكثر، كان الليل قد بدأ يحط أشياءه على سطوح قسنطينة، وعيونها بدأت تتأهب للسهر، فاستأذنتها، ووعدتها أن أحضر لها مخطوطي في الغد. وقبل أن أخرج سألتني:

ـ ما اسم هذا التمثال في القمة؟

أجبتها:

ـ هذه قمة «سيدي مسيد» وهذا تمثال «سيدة السلام».

(*) متعلمون.

أردفتْ:

- والجسر؟

أجبتها:

- جسر «سيدي مسيد».

سألتني مرة أخرى:

- وهل يتحرّك حين يمرُّ عليه الناس؟
- قليلاً.
- هل هو مرتفع كثيراً؟
- أظن أن ارتفاعه أكثر من ١٧٠ متراً.
- إنه جميل جداً، أتمنى أن أمُرَّ عليه، ويهتز.
- حين تشفين تماماً سأمرُّ أنا وأنت على «جسر ملاح سليمان»، إنه مخصص للراجلين فقط، وستشعرين بلذّة الاهتزاز عليه، وسأريك تمثال «قسطنطين» في شارع محطة السكك الحديدية، منذ عهده سنة ٣١٣ قبل الميلاد والمدينة تحمل اسمه، غداً سأسرد لك المزيد عنها، الآن يجب أن أعود إلى الحي، لقد تأخرتُ.

كانت سعيدة حين تركتها، وقد استغربتُ أنَّ انتحار «رزيقة» لم يهزها، كأنها كانت تتوقعه، كأنها تقبلته، كأنها تمنّته لها.

خرجتُ وأنا أحتفظ بابتسامتها وبريق عينيها، وقُبْلَتِها الدافئة على خدِّي، كانت تشبه قُبَلَ الأطفال، كانت كلها طفلة.

* * *

قبل أن أصعد إلى غرفتي اتصلت بوالدتي، قالت إنها تمطر بغزارة

في الخارج، وإن العمة تونس مريضة... وأخبار أخرى، نسيتها بمجرد إغلاقي السماعة.

وحدها قسنطينة تنسيني هموم بني مقران. في الغرفة وجدتُ أكلاً على الطاولة وورقة مطوية فوق كيس الخبز، فتحتها. كانت رسالة من زميلتي في الغرفة، كتبت بأحرف كبيرة: «لن أعود قبل أسبوع، أختي أنجبت طفلاً، وأنا مضطرة للبقاء معها... سلام... فريدة».

أمضيت تلك الليلة وحدي، تركت التلفزيون شغالاً ونمت، كانت الأصوات المنبعثة منه تملأ وحدتي، ولسبب ما شعرتُ أن «كل جراحي اعتراها القدم» ـ على رأي محمد الماغوط ـ فاستسلمت للنوم من دون أن أفكر في شيء، ولكنني استيقظت باكراً جداً، كتبت ما يقرب الست صفحات عن «رزيقة»، صليتُ صلاة الفجر، وعدتُ إلى الكتابة. تقدمتُ كثيراً في العمل على روايتي، بل أشرفت على إنهائها. قتلت كل أبطالي تقريباً، لم يبق غير نصر الدين، أبعدته أكثر من مرّة عن الموت، اخترعت له ألف سبب للقائي، ولكن بطلتي التي ارتديتُ قناعها لم تعد تفكر بالحب، صارت تفكر بالرحيل وها هي تنشد بصوت خافت:

«كل ما تراه وتسمعه، وتلمسه، وتتنشقه، وتتذوقه وما تذكره، وتنتظره، وينتظرك يدعوك للرحيل والفرار ولو بثيابك الداخلية إلى أقرب سفينة أو قطار:
ألوان الطعام
الشراب
الخدمات العامة
الرشاوى العلنية
أصوات المطربين

أصوات الباعة
مخالفات المرُور
الأمراض المستعصية
الأدوية المفقودة
والمجارير المكشوفة في كل مكان»(*).

«أتعبتني «خالدتي» (خالدة النص)، ركضتُ خلفها حتى زقاق «رحبة الصوف». «توقفتْ أمام مدرسة «علي خوجة». كان بإمكان نصر الدين أن يمر من هناك، فيما كانت تنتظر صديقة لها، ولكنه فضل أن يحتمي من المطر في أحد الدكاكين، فتحتْ مظلتها وحين خرجت صديقتها من المدرسة غادرتا الزقاق...».

كان يجب أن أختار مدينة أخرى لأبطالي غير قسنطينة، قسنطينة مخادعة، وتتلذذ بآلام العشاق.

قسنطينة ليست سوى صخرتين، صلصال وكلس. وحرارة عواطفها انحسرت مع البحر الذي كان يغطيها منذ مئة وخمسين مليون سنة.

كان يجب على «خالدتي» أن تكون من «القالة»(*)، كان يجب ألاّ تكون مثقفة، أن تكون بسيطة في كل تفاصيل حياتها كبساطة «القالة»، وكان على نصر الدين أن يكون شاعراً، جاء ليتجدَّدَ في «القالة»، ويلتقيان على «كورنيش المرجان» ويسبحان عند المغيب، ويفترقان في المساء فقط ليلتقيا.

(*) محمد الماغوط.
(*) مدينة جزائرية ساحلية تقع على الحدود التونسية.

كان يجب أن تكون «القالة» وليس «قسنطينة»، لكن قسنطينة أكثر تعقيداً وأكثر إثارة.
قلبتُ الصفحة...

وكتبتُ عن لقاء محتمل بينهما في ساحة «العقيد عميروش» لكنها دلفت هي وصديقتها إلى النفق الأرضي، فيما سارع هو الخطى نحو مديرية التربية والثقافة، كان صديقه في انتظاره.

الصداقة دائماً أقوى من الحب، ولهذا شوارع الصداقة متقاطعة ومتعانقة، أمّا شوارع الحب فحيثما تتقاطع هناك شارات الـ: sens interdit(*).

تعبتُ من نصي،
هناك شيء في اللاوعي عندي يعبث بالعلاقة بين بطليَّ، هناك شيء ما يشبه سوء الطالع يلاحقهما معاً.

هناك شيء ما يشبه سوء الطالع أيضاً يلاحقني أنا، ويلاحق نصر الدين (الأصل).
أيعقل أننا لم نعد نلتقي منذ ١٩٨٨؟ نحن القاطنين في مدينة واحدة... لكن آريس لم تعد مدينتي،
الماضي لم يعد مدينتي.
نصر الدين اختار أن يبقى في الماضي،
وأنا علّمتني قسنطينة كيف أتشابك مع كل الأزمنة.

* * *

(*) اتجاه ممنوع.

كانت الشمس قد دغدغت كل الجسور.
و«سيدة السلام» حتماً تثاءبت وفتحت جناحيها للربيع ويمينة حتماً قد بدأت تحلم بعبور جسر يهتز.
كل تفكيري قد استحوذت عليه.

أحضرتُ لها قميصاً آخر للنوم، عليه عصافير تطير، ومشطاً لتسريح شعرها، وخمس حبات من البرتقال. أحضرتُ لها مزيداً من الأغنيات، مزيداً من الحكايات، أردت أن أحقنها بفيروس قسنطينة، بفيروس الأدب والفن، أردتها أن تعشق الحياة من جديد، أن تنسى محنتها في الجبال، أن تقطع صلتها بالماضي، أن تصمد لمئات السنين كما صمدت كل هذه الجسور، أردتها صلبة، صلابة كل هذه الصخور.

فتحت باب غرفتها.
لم أجد أحداً، كان السرير فارغاً ومرتباً، دقت أجراس قلبي دقات هادئة ومتباعدة...

غَطّى الضباب «سيدة السلام»، طوّقت الغيوم قسنطينة، فغرت النافذة فاها، لعبت أصابع الهواء بالستائر، قلبت بعض صفحات كتاب.

إنها الكتب التي أحضرتها ليمينة... تجلس وحيدة قبالة النافذة.
تراجعت بضع خطوات إلى الوراء، ازدادت دقات القلب حزناً، وقفت أمام الطبيب المداوم أسأله:
- أين يمينة؟

أجابني بالفرنسية:

- Dans la morgue(*).

بعض اللغات وُجِدَتْ فقط لتخفِّف من وزن الموت، لأنَّ بعضها يُضاعف من وزنه ووقعه.

سقط المخطوط من يدي، تناثر على البلاط، سقط الكلام من اللسان، تناثر على البلاط.

- لماذا ماتت؟

أجاب باللغة نفسها:

- c'est la vie!(**).
- أيُّهما يفسِّرُ الآخر؟

حين نَسأل لماذا مات فلان؟ نُجاوَب: إنها الحياة!!

- متى ماتت؟
- البارحة بعد أن غادرتِ، ساءت حالتها فجأة، قمنا بما يلزم ولكن القدر كان أقوى منا.

عند عتبة الباب، كان يقف شاب نحيف وأسمر، يرتدي بذلة عسكرية، نظرتُ إلى عينيه فعرفته، كانت «يمينة» في كل ملامحه.

لم أشأ أن أمتلئ بمزيد من الحزن، أدرتُ له ظهري ومشيت.

(*) في براد الموتى.

(**) إنها الحياة.

قطعتُ جسر «سيدي مسيد» مشياً، اهتزَّ قليلاً حين مرت سيارتان.
بكيت...
أمنيتك الأخيرة لم تتحقق يا يمينة...

الجسر يهتز بدونك. الأمنيات تقفز بدونك، أرانبك الصغيرة نامت إلى الأبد، ومخطوطي المسكين لم تقرئيه.

ما أبسط الأمنيات التي لا تتحقق!
ما أسهل أن تتحقق المعجزات! لقد جاءك علي.
كان يومي قد بدأ وانتهى.
كان عمري قد بدأ وانتهى.
كان كل شيء في حداد.

سرت في حي «القصبة» وكأني أمشي في جنازة ولا أدري أين ضعتُ بعدها، لكنني وجدتُ نفسي في مكتبي بمقر الجريدة في آخر النهار، كتبتُ الكثير وقلتُ في النهاية «رفقاً بالقوارير»(*).

سلَّمتُ أوراقي، سلَّمت آخر انكساراتي، وحين عدتُ إلى بيت بني مقران في اليوم التالي، كنتُ أحضر حقيبة لرحيل أطول.
كنتُ قد اقتنعت أنَّ الحياة في الوطن مُعَادِلَةٌ للموت.

كم بكيتُ يمينة.
كم بكيتُ ربيعها الذي غادر مستعجلاً. كم كان قسنطينياً ذلك

(*) عبارة وردت في خطبة الوداع للنبي محمد عليه الصلاة والسلام والمقصود منها رفقاً بالنساء.

الربيع! كم كان يشبه الجسور التي تهتز!
نامي «يمينة»...

كانت «آريس» هادئة وحزينة، كانت جبالها تقيم الصلاة، أشجار الصفصاف ترتل، والبيوت في سجود خاشع.
نامي «يمينة»...

تربة الوطن في حداد عليك، كل الجسور في حداد عليك، وحتى الصنوبر، حتى الثلوج...
نامي «يمينة»...

لو لم تموتي نازفة فقط، لو لم تموتي عضواً عضواً، لو لم تموتي بالتقسيط، لو لم تنتحر «رزيقة»، لو لم تُجَنَّ «راوية» لقلت إن الربيع في الجزائر بخير.
لا أزهار في الجزائر بعد اليوم.
لا حقول.

الأرض مغروسة ببنادق «محشوشة الماسورة»، الأشجار تثمر حبات من الرصاص.

كل شيء في هذي الجبال تعوَّد الحرب، والقتال. الجزائر منذ اليونان، منذ الرومان، منذ بيزنطا منذ الوندال، منذ الأتراك، منذ فرنسا، وهي في حالة قتال.

القتال صار عادتها السيئة، صار فطرتها السيئة.
نامي «يمينة»...

«آريس» في حداد عليك،
و«طابندوت» تصلي صلاة الغائب عليك،
نامي «يمينة»...

لا مكان للإناث هنا، إلاّ وهن «نائمات».
نامي ...

ها هي حقيبتي في انتظاري،
ها هي حصتي في الوطن...
ليست أكثر من حقيبة سفر.
نامي...

توسدي البترول والغاز والمعادن.
توسدي «الحَسَدَ» الذي جعل نصف أبناء الجزائر يمشون حفاة!
نامي...

ها هي حقيبتي في انتظاري، حصتي في الوطن.ها هي أقلامي في انتظاري، أوراقي في انتظاري ها هو المجهول يصبح بديلاً للوطن.

* * *

في المطار كان «قدماء مرسيليا»(*) يروحون ويجيئون بـ «شيشانهم»(**) التي تُعَرِّف عن انتمائهم القروي.

(*) العمال الجزائريون الذين عملوا في مرسيليا، ويقبضون مرتبات تقاعدهم بالعملة الصعبة من هناك.
(**) شيشان جمع شاش، غطاء للرأس يشبه العمامة.

وكانت عاملة تنظيف لا مبالية تثير الغبار علينا، كُنَّا كلنا صامتين...
كحال الوطن.
كلنا متضايقين... كحال الوطن.

كانت أمامي امرأة مغتربة مع ابنتها الصغيرة. قالت البنت بتأفف:
- (il n'ya que de le mèrde dans ce Bled)(*).
صرخت الوالدة في وجهها باللغة نفسها: «tais toi «Yamina.

ابتسمتُ لاسمها، فلا أحد يتمسك بالأسماء القديمة غير أهل الجبال والمغتربين، ولا أحد يتمسك بالوطن غيرهم أيضاً. سكتت «يمينة» الصغيرة. كان يجب أن تصمت هي الأخرى بشكل ما، وأن تتعلّم لغة الصمت منذ الآن، إنها عادة متوارثة لدينا.

اعتذر صوت أنثوي في مكبر الصوت عن تأخر الطائرة، إنها العادة أيضاً، نحن دائماً في تأخر.

فتحتُ جريدة ذلك الصباح ورحتُ أقرأ أخبار الموت، قلبت الصفحة فازدادت أرقام الموت...

أغلقتها متأففة، فعلّق رجل بقربي:
- «أجريدة هذه أم مقبرة؟»(**).

أجبته:

(*) لا شيء في هذا البلد غير القذارات.
(**) الشاعر الجزائري عز الدين ميهوبي في قصيدته «جريدة».

ـ الوطن كله مقبرة!
ولذنا بالصمت.

بيروت ٢٤ أفريل/ نيسان ٢٠٠١

المؤلفة في سطور

فضيلة الفاروق

جزائرية تنتمي لعائلة بربرية عريقة.

ولدت في ٢٠ نوفمبر ١٩٦٧ في عاصمة الأوراس (آريس) بالشرق الجزائري.

- دراستها الثانوية كانت بقسنطينة في ثانوية مالك حداد.
- بكالوريا ـ رياضيات ١٩٨٧.
- التحقت بجامعة باتنة (شرق الجزائر) ودرست الطب لمدة سنتين.
- التحقت بمعهد اللغة العربية وآدابها في جامعة قسنطينة سنة ١٩٨٩.
- ليسانس في اللغة العربية وآدابها في سنة ١٩٩٤.
- ماجستير في اللغة العربية وآدابها في سنة ٢٠٠٠.
- حالياً تحضر لشهادة الدكتوراه منتسبة لجامعة وهران (غرب الجزائر).

- عملت في حقل الصحافة المكتوبة والمسموعة في الجزائر من ١٩٩٠ إلى ١٩٩٥، وكان لها زاوية شهيرة في أسبوعية «الحياة الجزائرية» أثارت أكثر من ضجة.
- كان لها برنامج أدبي دام سنتين اسمه «مرافئ الإبداع» على القناة الإذاعية الأولى من أهم البرامج الناجحة.
- انتقلت إلى لبنان سنة ١٩٩٥ بعد أن تزوجت بلبناني.
- لها إسهامات في الصحافة اللبنانية (الكفاح العربي - الحياة - السفير، وعناوين أخرى).

صدر لها:

- **لحظة لاختلاس الحب (قصص) - دار الفارابي ، بيروت ١٩٩٧.**
- **مزاج مراهقة** (رواية) دار الفارابي بيروت ١٩٩٩.

فضيلة الفاروق

تاء الخجل

منذ العبوس الذي يستقبلنا عند الولادة.

منذ القدم من هذا.

منذ والدتي التي ظلت معلّقة بزواج
ليس زواجاً تماماً.

منذ كل ما كنت أراه فيها يموت بصمت.

منذ جدتي التي ظلت مشلولة نصف
قرن من الزمن.

إثر الضرب المبرح الذي تعرضت له من
أخي زوجها وصفقت له القبيلة، وأغمض
القانون عنه عينيه.

منذ القدم.

منذ الجواري والحريم.

منذ الحروب التي تقوم من أجل مزيد
من الغنائم.

منهن... إلى أنا، لا شيء تغير سوى تنوع
في وسائل القمع وانتهاك كرامة النساء.

لهذا كثيراً ما هربت من أنوثتي.

وكثيراً ما هربت منك لأنك مرادف
لتلك الأنوثة

(من الكتاب)

ISBN 9953-21-126-4
9 789953 211268
رياض الريس للكتب والنشر
RIAD EL-RAYYES BOOKS